

انور السادات
وصيتي
المكتب المصري الحديث

وصيتي

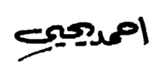
الطبعة الأولى يناير ١٩٨٢

الناشر: المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

أنور السادات

وصـــــيتي

المكتب المصري الحديث



الفصل الأول

لماذا كتبت هذا الكتاب

١

الإنسان المصرى فى اعتقادى هو حجر الزاوية الذى ينهض عليه المجتمع كله ، إذ أنه يشكل الوحدة الأساسية الأولى للأسرة التى تشكل بدورها المجتمع الكبير ، واعتمادا على هذا المنطق البسيط والخطير ، فإنه لا يمكن أن تقوم قائمة حقيقية لمجتمعنا المتحضر المعاصر بدون الإنسان الذى يقع على كتفيه وحده مسئولية البناء والتطور والتقدم .

ويعنى هذا آن بناء المجتمع مرحلة تالية لبناء الإنسان ، والمجتمع الذى يقهر الإنسان هو المجتمع الذى يقضى على نفسه بنفسه . ويشهد التاريخ الإنسانى كله على أن مراحل التحول الخطيرة التى عرفتها البشرية كانت نتيجة لأفكار فلاسفة وانجازات قادة ، وابتكارات مخترعين ، أى أن الإنسان بعقله وروحه وجسده كان المحرك الأساسى لتاريخ الحضارة الإنسانية ولذلك فمن الضرورى أن يكون النظام الاجتماعى ، أى نظام ، فى خدمة الإنسان أساسا ، وإذا لم يكن فى خدمته ، فمن الحتمى أن يتطور لكى يحقق هذا الهدف الإنسانى .

وإذا كان من المفروض أن يخدم الإنسان المجتمع الذى يعيش فيه فإن هذا لا يعنى أن الخدمة من طرف واحد ، وإلا تحولت إلى عبودية مقنعة أو سافرة ، وإنما يجب أن تكون الخدمة متبادلة وعندئذ فقط تقوى روابط الإنسان بوطنه ويتعمق شعوره بانتمائه إليه ، وبدون هذا الشعور الحيوى بالانتماء يصبح الإنسان بلا هوية حقيقية ، والمجتمع بلا شخصية قومية .

من هنا كان اصرارى على قيمة الإنسان المصرى فى الباب الرابع من « ورقة أكتوبر » التى أكدت فيها :

إن هدفنا الأسمى من هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة ، فى هذه المرحلة التى تنطلق فيها روح رمضان « أكتوبر العظيم » إلى مهمة التقدم والبناء ، هى أن نقيم فى بلادنا الدولة العصرية والمجتمع الحديث ، حتى يستطيع شعبنا أن يحقق من خلالهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلاقة .

ولا يجوز لنا أن نتهيب لحظة واحدة فى هذه الرحلة التى لا مفر منها إلى المستقبل العريض .

وبما أن الإنسان المصرى هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، فإنه منذ البداية هو وسيلة هذا التقدم وهو نفسه الضمان الوحيد لهذا التقدم .

الضمان لأن ننطلق إلى هذه الرحلة ، آخذين بأحدث

معطيات العصر فى شتى المجالات ، دون ما خشية من أن نفقد خلال هذه الرحلة هويتنا ، أو أن ننقطع عن أصالتنا ، أو أن ننسى الفضائل التى كان هذا الشعب دائماً يعتز بها ويمجدها .

فهذا الشعب ،كما أقول دائماً،يحمل فى أعماقه قيم حضارات عمرها سبعة آلاف سنة ، وبرغم أن تلك الحضارات كانت تنهض به وتكبو وتنطلق وتنقطع وتتغير وتتجدد ، فإن الشعب كان يعرف فى النهاية دائماً كيف يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظا بخصائصه الأصيلة ، وفطرته الصافية السليمة .

إن من يكتفى بقراءة العناوين ، يجد أسماء مختلفة لحضارات متعاقبة ، ونظم شتى ، وحكام جاءوا من أقصى أنحاء الأرض ، ولكن من يتعمق وراء ذلك يجد تلك الصفة العجيبة وهى الوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة .

لقد مرت على هذا الشعب قرون بكاملها ، كان فيها لا يكاد يملك شيئاً من أرضه ، ولا من رأيه ولكنه بقى مع ذلك محتفظا بشخصيته المتماسكة ، وبنسيجه الوطنى المنسجم الذى أفنى فيه غزاته ومستعمريه ومستغليه .

وكانت صفته المميزة على الدوام ، والتى كانت تجعله قادراً على هذا الاستيعاب العجيب لهؤلاء الغزاة والمستغلين ، هى أنه كان دائماً شعباً صانعا للحضارة ، بانيا للعمران . ولم تكن المهارات التى قدمها للدنيا أبدا من مهارات الغزو والتدمير ، بل من مهارات البناء والتعمير .

وليس أدل على هذه الخصائص ذات الجذور العميقة من أن هذا الشعب كان يمر بالأحداث والتغيرات العميقة محتفظا بدرجة نادرة من الوحدة الوطنية والانسجام القومى ، مازالت مضرب الأمثال فى العالم .

وإن التحولات السياسية والاجتماعية الكبيرة التى لابد منها فى مراحل معينة من حياة كل أمة حية ، كان يسودها طابع التحول السلمى لا الدموى ، وكان الشعب ينجزها ويتجاوزها ثم لا يلبث أن يضم جناحيه بعدها على كل أبنائه .

حتى نظم الاستعمار والغزو التى نجحت فى مناطق أخرى من ان تفرق وتقسم ، لم يكتب لها هذا النجاح فى مصر قط ، بل ظل تكاملها الشعبى والوطنى والجغرافى فوق كل نزاع ، وقد كانت هذه الصفات ذاتها ، هى التى مكنته من أداء دوره التاريخى فى مساندة الأمة العربية التى ينتمى إليها ، ورد الغزوات عنها ، واحتضان قيمها وتراثها فى ظروف المحن والغزوات والتمزقات .

٢

وعلى الرغم من أن ثورتنا المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت نقطة تحول أساسية فى تاريخ العالم المعاصر .

وعلى الرغم من أنها استطاعت أن تتحدى الاستعمار العالمى العتيد وأن تضع نهاية له بتأميم قناة السويس وانسحاب بريطانيا وفرنسا وإسرائيل من بورسعيد وسيناء بعد الفشل الذريع الذى أصيبت به كل منها ، إلا أن الثورة نسيت فى غمرة انتصاراتها دور الإنسان المصرى فيها .

وكان هذا هو الباب الذى فتح فيما بعد على مصراعيه لكى تدخل منه كل السلبيات والنكسات التى اعترضت المسيرة الثورية وشوهت صورتها الحضارية فى نظر أبنائها قبل أن تشوها فى نظر الآخرين .

لعل هذا يرجع أساساً إلى غياب النظرية السياسية الاجتماعية المتكاملة التى تسرى فى فكر الأجيال المتعاقبة ووجدانها ، وتتحول إلى منهج للفكر والسلوك الذى يجنب المسيرة الدخول فى متاهات جانبية أو طرق مسدودة .

صحيح أنه كان فى جعبة الضباط الأحرار المبادىء الستة الشهيرة وهى :

١ — القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة

٢ — القضاء على الاقطاع .

٣ — القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم .

٤ — تطبيق العدالة الاجتماعية .

٥ — إقامة جيش وطنى قوى .

٦ — إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وقد نجحت الثورة فى تطبيق المبادىء الخمسة الأولى ، وإن كانت الفرصة لم تتح للجيش الوطنى القوى لكى يحارب إلا فى حرب أكتوبر المجيدة فى عام ١٩٧٣ .

أما المبدأ السادس الذى ينص على إقامة حياة ديمقراطية سليمة فقد أهملته الثورة تماماً ، وبالتالى تحول الإنسان المصرى إلى مجرد أداة فى خدمة النظام الثورى مما أدى إلى كل السلبيات والنكسات التى بدأت بانفصال سوريا عن مصر فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، ثم بلغت قمتها فى هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وحتى رحيل أخى وصديق عمرى جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

وعندما توليت المسئولية وجدت أن نقطة الابتداء الوحيدة التى يمكن أن أنطلق منها تكمن فى كلمة واحدة هى الإنسان المصرى فلقد تمزق الإنسان المصرى فى فترة الستينات وكان ذلك نتيجة حتمية لمأساة التطبيق الاشتراكى فى مصر .

فقد أصبحت الاشتراكية فى ذلك الوقت مرادفا لفرض الحراسات ، ومصادرة الممتلكات ، وفتح المعتقلات ، وغياب القانون .. وأوشكت هذه الموجة الطاغية أن تطمس معالم شخصيتنا الأصيلة مع ضياع المثل والقيم والتقاليد التى منحت شعبنا الاصرار والصمود والإرادة الصلبة على مر حقب تاريخه الحضارى الطويل .

فلقد فقد الإنسان المصرى إحساسه الأصيل بالانتماء إلى وطنه لأنه أدرك أن هذا الوطن أصبح ملكا لفئة قليلة تجلس على قمة السلطة تماما كطبقة الحكام قبل الثورة وتصدر تفسيراتها للتطبيق الاشتراكى طبقا لمصالحها الشخصية واهوائها الذاتية ، وتحدد بمنتهى الحرية الحدود الفاصلة فى نظرها بين الشعب وأعداء الشعب دون أية مراجعة أو محاسبة .

وبدأ سيل الهجرة إلى الخارج ، خاصة خيرة شبابنا من العلماء والخبراء النابغين ، لعلهم يجدون خارج وطنهم ما عجزوا عن ايجاده داخله .

وعندما جاء امتحان ٥ يونيو ١٩٦٧ العسير كان من المنطقى جداً أن يسقط النظام ويتداعى لغياب الإنسان المصرى الذى كان من المفروض أن يشكل دعامته الأساسية .. وإذا لم يكن هذا الإنسان غائبا بجسده فقد كان غائبا بعقله وروحه على الأقل .



كان علىّ أن أعيد الإنسان المصرى إلى مصر أو أن أعيد مصر إلى الإنسان المصرى .

وعلى الرغم من أن شاغلنا الأول كان الاستعداد لمواجهة عسكرية جديدة مع عدو يحتل الضفة الشرقية مباشرة من قنالنا ويتربص بنا ولا يكف عن تهديدنا فى قلب بلادنا ، إلا أننى وجدت أنه لابد من اتخاذ الموقف الحاسم الذى يلبى هذه الرغبة العميقة لدى الشعب ، واثقا من فطرة جماهيرنا السليمة ، ومن التفاف الشعب حول قيادته خلال معركة المصير .

كان لابد أن يشعر كل مواطن أنه مسئول عن أقدار بلاده بقدر مسئولية سواه ، وأن قضاياه الأساسية تناقش أمامه علانية ، وأنه لا توجد وصاية تمارس عليه فى الخفاء .

لذلك كان لابد أن يزول الخوف .

وأن تختفى بذور الشك .

وأن تتراجع الحزازات والأحقاد .

وأن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله .

كان لابد أن يعرف كل مواطن أن الحرب التى هو مقدم عليها لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقيما أعلى وأرفع ، كما أنها سوف تحمل له أملا فى أن يتطلع بحق إلى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة إلا فى وطن قوى عزيز متحرر .

لهذا أصدرت قانون إلغاء الحراسات بعد أن توليت المسئولية بشهرين فقط .. ، وفى ١٥ مايو ١٩٧١ أعلنت ثورة التصحيح التى لم تقف عند حد تنحية مراكز القوى عن الطريق ، ولكنها انطلقت إلى تحقيق جوهرها الأهم بالعمل على ارساء سيادة القانون فاغلقت المعتقلات لأول مرة فى مصر منذ أربعين عاما وأعززت كلمة القضاء وأقمت دولة المؤسسات ووضعت الضوابط التى يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح ويمارسها فى طمأنينة ، وذلك عن طريق إقامة دستور دائم .

وعلى الرغم من أن ثورة التصحيح كان لابد أن يقترن بها ما يحدث مع كل خطوة لإزالة السدود والقيود من مناقشات وتيارات وانفعالات ونحن لانزال فى ظروف الحرب ، إلا أننى كنت واثقا من أن ايجابيات هذا الوضع أكثر من محاذيره ، وأن الوحدة العميقة لهذا الشعب خصوصا فى ساعات الخطر سوف تصمد للتجربة بل سوف تزيد هذه التجربة مناعة وقوة .

كل هذه كانت خطوات عملية من أجل إعادة بناء الإنسان المصرى الذى أهملناه طويلا مما أدى إلى الفراغ السياسى والفكرى الذى تعانى منه بصفة خاصة أجيال الشباب التى ننتظر منها حمل مسئولية الوطن فى المستقبل القريب .

إن الشباب اليوم فى حاجة إلى حوار بين الأجيال بدلا من صراع بين الأجيال . حوار تنتقل به التجربة وتنقل به المسئولية إلى أمل لا تصده حواجز .. ولعل أهم ملامح هذا الأمل أن يشعر الإنسان المصرى الجديد أن آماله فى وطنه غير مقيدة .

٤

واليوم ونحن فى هذا المنعطف من تاريخنا ، بعد أن حققنا إرادتنا أمام العالم كله واستعدنا ثقتنا بأنفسنا ، وبقواتنا المسلحة التى أصبحت لنا درعا وسيفا ، اليوم يأتى دور الجيل الذى يتسلم منا الأمانة ، وأقولها بصدق كم نزفت جباهنا مرارة وألما وتمزقا ، فقد عايشنا الاستعمار ، والاقطاع والسيطرة الأجنبية الكاملة على اقتصادنا ، عايشنا مجتمع الخمسة فى المائة ، وقت أن كنا شبابا ، ولم يكن ينعم بخيرات هذا البلد إلا هؤلاء الخمسة فى المائة وكنا نحن جميعا من المغتربين ، ولكن عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو غيرت هذا الواقع كله .

ولقد شب الشباب ولم يعاصروا كل هذه الأحداث فأصبح كل شيء تحت أيديهم حقا مكتسبا يطلبون أكثر منه ، وهذا حق لا أعيبه عليهم لأننا لابد أن نتطلع دائماً إلى أعلى ، وإنما أريد أن أقول لهم بهذا الكتاب الذى بين أيديهم : لقد آن الأوان لكى يتحملوا مسئوليتهم ولذلك أكدت فى « ورقة أكتوبر » .

« ان من حق شبابنا بالذات أن يدرك هذا التقييم الموضوعى للتجربة ليعرف بالدقة ماذا حقق جيلنا ، وماذا كان مقدار جهده ، وما تعرض له العمل الوطنى من نواقص ليتخذ عن اقتناع مكانه الطليعى فى حركة العمل الوطنى بدلاً من أن تمزقه التيارات التى تحاول أن تنكر التجربة جملة وتفصيلا » .

ولكن لن يستطيع الشباب أن ينهض بأعباء العمل الوطنى الجسيمة إلا إذا تخلص من الفراغ الفكرى والروحى والسياسى الذى يعانى منه نتيجة تعطل الممارسة الفكرية والسياسية على مدى العشرين سنة الماضية . وبهذا وحده يستطيع أن يوائم بين حركة العمل الوطنى وبين الظروف المتغيرة التى نعيشها ويعيشها العالم من حولنا .

إن أسلوب العمل الوطنى يجب أن يتغير بتغير الظروف التى يواجهها فى ظل التمسك بالقيم الأصيلة والمبادىء الجوهرية التى ارتضاها الشعب ، مع العلم بأن هذه القيم والمبادىء لا تتعارض اطلاقا مع التغيرات الكثيرة التى شهدها واقعنا المحلى ومنطقتنا العربية والعالم كله .

وإذا كان منهاجنا الأساسى هو حرية الإرادة الوطنية فى اتخاذ القرار وفى صياغة المستقبل . فإن الممارسة الفعالة لهذه الحرية تقتضى حسابا دقيقا لكل ما يحيط بنا من ظروف لنقرر لأنفسنا

ما هو خليق بتحقيق أهدافنا فى البناء والتقدم . وفى تقديرى أن نقطة البدء هى هنا فى مصر بكل تراثها وقيمها وتقاليدها الحضارية ، فنحن لم نعد نتلقى سلبيا نتائج متغيرات خارجية ، بل فتح أكتوبر العظيم عهدا جديدا من شأنه أن يمكن مصر من أن تؤثر فى السياسة العالمية وأن تؤثر بدورها فى حركة التطور بالمنطقة بالتعاون مع اخوتنا فى البلاد العربية .

٥

ولعل الفراغ السياسى والفكرى الذى عانت منه أجيال الشباب بعد الثورة كان يرجع إلى أن المحاولات التى بذلت فى هذا المجال لم تكن تهدف إلى ايجاد نظرية متكاملة ، بل كانت تسعى فقط إلى تغطية آثار موقف يخشى أن تمتد فتزعزع نظام الحكم ذاته . هكذا صدر الميثاق عام « ١٩٦٢ » لكى يغطى آثار الانفصال مع سوريا عام ١٩٦١ ، وأذيع « برنامج ٣٠ مارس » عام ١٩٦٨ لكى يفرغ الشحنة التى امتلأ بها الشعب وأوشكت على الانفجار .. لذلك لم يخرج « الميثاق » و « برنامج ٣٠ مارس » عن حدود الأساليب الإنشائية الرصينة ، والعبارات البراقة ذات الرنين الإنسانى الجميل ، التى لم تخرج إلى حيز التنفيذ الفعلى كلمة واحدة مما قيل فيهما ، مما ضاعف من الفراغ السياسى والفكرى عند شبابنا الذى أصبح نهبا للتيارات المستوردة التى تهدف إلى شهد مصر إلى فلك هذا أو ذاك . ونسى كثيرون أن لمصر الفلك الخاص بها منذ آلاف السنين عندما ترعرعت على ضفاف نيلها العظيم أول حضارة عرفتها البشرية جمعاء .

ومع هذه الحضارة ترسخ كثير من القيم الإنسانية ، والمثل العليا ، والتقاليد الأصيلة التى نقلتها عنها كل الحضارات التى جاءت بعدها . ولكن هذه القيم والمثل والتقاليد توارت فى السنوات الأخيرة بفعل الضغوط الخارجية الرهيبة التى تعرض لها شعبنا من أجل إيمانه العميق بالقضية العربية .. ولكن بعد انتصار أكتوبر المجيد آن الأوان لتأصيل هذه القيم والمثل والتقاليد التى نبعت أساساً من أرضنا الطيبة .

إن هذا الكتاب يهدف أساساً إلى تأصيل هذه القيم الأصيلة حتى تتحول فى أيدى من يعيش وسوف يعيش على هذه الأرض الطيبة إلى أسلحة فكرية يدافع بها عن وطنه ضد أى غزو فكرى ، وتمنحه من بعد الرؤية وعمق البصيرة ما يجنبه الميل إلى هذا الاتجاه أو ذاك . فنحن لا نسير إلى يمين أو يسار ولكننا نتقدم إلى الأمام .

لم أقتصر فى كتابى هذا على قراءاتى فى السجن والحياة ، بل عبرت به مجال النظرية إلى ميدان التطبيق حيث استعنت كثيراً بخبرتى الشخصية والدروس العملية المستفادة منها .. وغالبا ما تكون التجربة الحية أكثر نبضا وأشد أثرا من القراءات النظرية .

فإلى الشعب المصرى أقدم بين صفحات هذا الكتاب عصارة ثقافة وخبرة أربعين عاما منذ تخرجى فى الكلية الحربيه عام ١٩٣٨ حتى الآن .. خبرة كلها معاناه ، وألم ، ويأس وأمل ، وحنين ، وصراع ، وكفاح من أجل تلك المحبوبة التى نعشقها جميعا : مصر .

الفصل الثانى

من أجل مصر

١

يظن الكثيرون من الناس أن ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ دبر لها تشكيل الضباط إثر حادث معين جمعهم على هدف وتدبير . وفى أجواء الظنون .. تجد الاشاعات كثيراً من نقط الارتكاز .. تجد النقطة الأولى فى حرب فلسطين بين أشلاء الضحايا وخيانات الملك فاروق وعصابته .

تجد النقطة الثانية فى تحقيقات الأسلحة الفاسدة وتدخل الملك لتحفظ الدعوى بالنسبة لحاشيته .

تجد النقطة الثالثة فى تصرفات قيادة الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا أنفسهم فى أحذية فاروق .

ولقد كانت كل هذه الأحداث فعلا من الأحداث التى شغلت اهتمام الضباط الأحرار ، واستحثت خطاهم ولكن نشأة الثورة والتمهيد لها لم يستمد من حادث من هذه الأحداث .

فقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية ، ونما التمهيد لها نموا طبيعيا لأنها كانت فى كل مراحلها تفاعلا طبيعيا قويا بين ضمير جيش مصر ، وضمير شعب مصر .

متى نشأت إذن .. وأين نشأت ! !

لنرجع إلى الوراء ، إلى عام ١٩٣٨ .. ولنذهب إلى منقباد ، هذه البيئة المصرية الخالصة التى يشعر فيها المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه .

فى الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بين الأصدقاء يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها على عواء الرياح .. هناك حول النار فى معسكر المناورات بتبات الشريف ، كنا نقضى طرفا من كل ليلة .. أصدقاء كلهم صغار السن . صغار المناصب ، كبار الآمال ، ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان ، نتحرق طوال النهار فى الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب التى لم تكن لتنطفىء لأن وقودها كان يتجدد فى كل لحظة من أحاسيسنا الشابة المرهفة ومما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح إلى المساء .

كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث فقد كنا ضباطا صغارا وكان لنا قواد .. وكان هناك أيضاً الانجليز .. وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا اذلالنا ، والانحناء أمام الانجليز .. وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق ونسخط .. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم .. وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل فى داخل النظام العسكرى وفى تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدفن النار فى احشائه .

٢

هكذا كانت أيامنا ، لكن لياليناكانت تختلف اختلافا كبيراً .. ففى جو من الصداقة والألفة ، كنا نجلس فنمرح ، ونذيب فى هذا المرح شقاء اليوم الطويل ، شقاء الجسد وشقاء النفس ، شقاء الغربة فى جبل بعيد . لكن وإن كنا قد أخذنا حياة قوادنا الكبار فى ذلك الوقت بالسخرية العنيفة نطلقها فى ساعات المرح فقد جاء اليوم الذى لم تعد فيه السخرية تغنى عن آلامنا شيئاً .. وبدأنا نيأس من خدمة الجيش ، وأعد بعضنا استقالته فعلا من الجيش الذى أصبح يشتغل بأى عمل سوى حماية الوطن وطرد المستعمر .

ولعل السبب فى أن هذا البعض لم يصل فى موضوع الاستقالة إلى نهاية المطاف أن الصلات كانت قد اشتدت بين كل منا ، وبين المجموعة الكاملة .. حتى أصبح كل منا يفكر بعقلية الكل ، وأصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة وأصبحت هذه الجماعة يوما بعد يوم قيدا جديدا لتصرفاتنا ، لأن كل عمل يأتيه أى فرد منها سينسب إلى الجماعة شاءت أم لم تشأ ، علمت بالأمر أم لم تعلم .

وإنى لأذكر تلك الأيام والليالى ، أذكر مرحنا وآلامنا وأيام صداقتنا الجميلة الأولى وقوادنا المصريين الذين أرادوا أن يذلوا رقابنا ، كما ذاقو الذل على أيدى صغار الانجليز .. أذكر كل هذا .. وأذكر أننا فى خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب ، بدأنا نفكر ذات ليلة .

تركز تفكيرنا كلنا فى الانجليز .. أنهم أصل البلاء فى البلاد .. وكانت هذه القضية التى لا يشعر بها شبابنا الآن بحكم عدم معاصرتهم لها – كانت مفتاح تفكير طويل لم يلبث أن أصبح خطى عملية متتابعة . كنا جميعا نكره الانجليز الذين نظروا إلى الإنسان المصرى على أنه كائن متخلف لا يصح أن يحصل على استقلاله وحريته .

ومن أجل القضاء على هذه الفكرة ومثلها من الأفكار التى حكمت على مصر بالموت بدأنا نجمع حولنا أنصارنا لفكرة الحياة ، كل منا يختبر عددا من الضباط الآخرين ، ويكوّن فى محيطه خلية صغيرة يثير فيها هذه الفكرة ، ويرى مدى استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل .. وبدأنا نخطو الخطوة الأولى فنحسب لها حسابا ونلقى الكلمة فنفكر قبل القائها مرتين . بدأنا ننزع من أعماقنا زهو الشباب ونحل فيها الشعور بالمسئولية .

وجاء الدرس الأول الذى أفدناه بعد ذلك فأصبح درس

حياتنا .. فقد مرت أيام قليلة كنا فيها لا نزال فى فترة تكويننا الأولى ، وإذا بالشيء الذى نسيناه جميعا يقع وكنا خليقين بتوقعه ، فان ضابط الجيش لا يستقر فى مكان واحد طويلا وإن هى إلا لحظة مفاجئة ، حتى كنا قد تفرقنا شعاعا ، واحد فى الاسكندرية والثانى فى طنطا والثالث فى القاهرة ، والرابع فى مرسى مطروح ...

افترقنا وكانت الحرب إذ ذاك قد بدأت والأعصاب توترت ، ولكن الحلم لم يذب والفرقة لم تستطع أن تكون حاجزا بين هذه المجموعة فى أقسى الظروف التى حلت بها وفهمنا مع الايام هذا الدرس ، وهو أن الصداقة القوية عندما تقوم على نقاء وطهر وعندما تتركز أيضاً حول فكرة فإنها قادرة على الحياة مهما فرقت الحياة بين الأصدقاء ، بل هى أكثر من ذلك تستطيع وحدها صنع المعجزات ، فكنا إذ نفترق لا تفارقنا الفكرة ولا عهد الجماعة ، كل ما كان هناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل فيعمل ، يعمل مستقلا بارادته فى ظاهر الأمر ولكنه فى حقيقته يكون مقيدا بارادة الجماعة المتمثلة فى فكرتها الكبيرة وعهدها المقدس .

وقد تختفى من بيننا أسماء فى كثير من الأوقات كما اختفى اسم جمال عبد الناصر عامين كاملين بين ديسمبر ١٩٣٩ وديسمبر ١٩٤١ إذ كان فى هذه الفترة قد نقل إلى السودان .

وظللت أنا فى نواة التنظيم أبلورها بقدر طاقتى حتى طردت من الجيش وأودعت سجن الأجانب ابتداء من أغسطس ١٩٤٢ .. بعدها تراوحت حياتى بين المعتقلات والسجون والتشريد والهروب والمطاردة والاشتغال بالأعمال الحرة إلى أن عدت إلى الجيش فى عام ١٩٥٠ وأنضممت إلى الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى عام ١٩٥١ ، وكان جمال عبد الناصر قد تولى فى غيابى قيادة التنظيم بكل شعبه وخلاياه السرية .

٣

بدأ التمهيد للثورة مراحله الحاسمة عندما قرر الضباط الأحرار تغيير حالة الجيش الأليمة غير المشجعة ... فلم يكن لضباط الجيش إذ ذاك اى رأى عام ... والسخط لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة عملية ، ما لم يصبح سخطا عاما محدد الأسباب .. دافعا إلى التكتل والعمل من خلال خطة مدروسة ترتب النتائج المتوقعة قياسا على الأسباب الموضوعية ... لذلك كانت حتمية لا مهرب منها أن تخلق المجموعة الثائرة رأيا عاما بين ضباط الجيش حتى يستطيع هذا الرأى العام أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد بصورة منظمة منسقة .

كانت المشكلة الأولى التى تواجه الضباط الأحرار أن مجهوداتهم كانت محدودة لأنهم كانوا يعملون اعتماداً على أنفسهم وليس بناء على رأى عام موحد وموجه بين الضباط ، ولذلك كانت أعمالهم فردية أو شبه فردية ... أما المشكلة الثانية فهى انعزال الجيش عن الشعب وتسخيره دائما ضد كل حركة شعبية تقوم فى البلاد ...

كان الشعب فى ذلك الوقت يتحمل عبء الثورة والتضحية الجسيمة والأستشهاد برصاص السلطات المصرية والبريطانية على حد سواء ... لذلك كان أهم بند فى التخطيط للثورة أن يطمئن الشعب إلى جانب الجيش ، وأن يدرك أن هذا الجيش معه ، لا عليه ، وعلى الأقل أن يدرك أن هذا الجيش ، إن لم يستطع أن يكون معه بحكم ظروفه وواقعه ، فلن يكون عليه بحكم مصريته .

استقرت جماعة الضباط الأحرار على تخطيط علمى مدروس ، بدأت فى تنفيذه على الوجه التالى :

١ — خلق رأى عام قوى بين ضباط الجيش

٢ — اشعار الضباط أن عليهم مسئولية كمواطنين ، لا تقل عن مسئولية أفراد الشعب العاديين .

٣ — وضع تخطيط تدريجى لبث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصبح من الممكن توجيههم إلى أن يكون للجيش نفسه دور فى عملية انقاذ البلاد ، أو أن يكون على الأقل محايداً بين الشعب والسلطات الحاكمة العميلة ، بحيث لا يشترك فى تسديد الضربات إلى الشعب إذا تقدم أحد لحمل تبعة الانقاذ .

أما الهدف البعيد الرئيسى الذى لم يغب عن أعين منفذى التخطيط حتى لا يدخلوا فى متاهات جانبية ، فقد كان الوصول بأية خطة من الخطط المحكمة إلى تغيير النظام الملكى القائم فى البلاد ، وهو النظام الذى تجسد فيه تحالف الأقطاع مع

الاستعمار مع رأس المال الأجنبى من أجل استغلال خيرات مصر وإهدار كرامتها ، وكانت النتيجة أن فقد الانسان المصرى إحساسه بالانتماء إلى وطنه ..

والاحساس بالاغتراب هين إذا لم يفقد الانسان الأمل فى العودة إلى موطنه ، ولكن ما الحال إذا كان الانسان منفيا داخل وطنه !!

هكذا كان حال الانسان المصرى تحت ضغوط الملكية والاستعمار والاقطاع ورأس المال الأجنبى .. ومن أجل هذا الإنسان لم يأل الضباط الاحرار جهداً من أجل تنفيذ خطتهم لإنقاذه .

كانت أولى خصائص تلك الخطة هى نبذ السرية نبذاً تاماً فى المراحل المبكرة من مراحل الدعوة ، لان السرية توحى بالتآمر وتنذر بالخطورة ولا تستطيع أن تجمع الانصار بسهولة إذ أن عامل الخوف والحذر قد يتغلب فى آخر الأمر .. أما فى جو العلنية الصريحة فيمكن تكوين الصداقات وتعزيزها ، واختيار الأشخاص الذين يبدو إخلاصهم وقدرتهم على العمل دون إثارة لغط أو شكوك فى صفوف الضباط أو فى الأوساط الحاكمة .. على هذا الأساس قامت جماعة الضباط الاحرار بين

جماعات الأصدقاء فى الجيش بإثارة المناقشات العلنية فى جميع مشكلات الدولة السياسية والاجتماعية .. والاقتصادية الداخلية والخارجية .. وبالفعل انتشرت المناقشات العلنية بين الضباط بصورة مبشرة ناجحة ، وبدأت تسمع نفس المناقشات فى أماكن متفرقة ، وبدأت ترى الضباط يلتقون فإذا هم متفقون فى السخط ، متفقون فى التفكير فيما يجب عمله من أجل انقاذ الوطن والوفاء بحاجاته .. معنى هذا أن الرأى العام قد بدأ يتكون ، وأن عقبة كبيرة من عقبات الطريق قد بدأت فى الزوال .

بعد ذلك كان لابد من التوجيه لأن هذا السخط عندما ينمو ، يمكن أن يكون خطراً كبيراً ، إذا لم يصحبه توجيه سديد يعرف جيداً الخطوة التى تؤدى إلى الخطوة التالية وهكذا .

فمن المحتمل بل من المتوقع أن تقع أحداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر ، وبين يوم وآخر من تلك الأيام العصيبة السوداء .. وإذ بالساخطين ينفجرون فرادى .. أو ينفجرون دون وعى فيؤخرون الحركة بدلا من أن يساعدوا على تقدمها .. خاصة أنه من الممكن لبعض الهيئات أو الجماعات إذ تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضباط الجيش أن تحاول ضمهم اليها بصورة أو بأخرى . عندئذ تفلت من الجيش قيادته إلى أيد قد لا تحسن التوجيه .. لذلك قررت جماعة الضباط الاحرار تطوير المخطط الثورى حتى يتلاءم مع الظروف الجديدة .

تطور المخطط بحيث تتفق جماعة الضباط الاحرار على أساسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملا جوهرياً من عوامل النجاح :

أولا : العمل على ألا يتأثر الضباط بالأحداث الجارية أى تأثر يدفعهم فرادى أو جماعات على القيام بأى عمل دون وعى أساسى ودون خطة حكيمة مدروسة .

ثانيا : العمل على أن يحتفظ ضباط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد أو كجماعات بأية هيئة أو حزب خارج نطاق الجيش ، لأن الجيش عنصر خطير يجب أن يظل توجيهه فى الأيدى القادرة على تقدير خطره ، فلا يكون أداة فى يد أحد أو جماعة من الناس .. وكان لابد لضمان هذين العنصرين من نشاط منظم مدروس تسيطر على توجيهه جماعة الضباط الاحرار نفسها .

٤

بدأ التنفيذ العملى للخطة بالتدريج وجدت حلقتان كبيرتان تجتمعان علنا وفى نطاق واسع ، وعلى اساس الصداقة ايضا لكى تبث الأفكار وتحذر الضباط من التأثر تأثراً فردياً ومن الأرتباط بأية جماعة أو فرد خارج نطاق الجيش ، وبالفعل بدأت الفكرتان ترسخان فى نفوس الضباط ، وأصبحتا جزءاً لا يتجزأ من الرأى العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الأسلحة ، وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة التنظيم قد شملت جميع ضباط الجيش ، ولا نسبة كبيرة منهم .. بل كانت فى الجيش العناصر السلبية التى لا تضر ولا تفيد ، والتى لا يمكن الاعتماد عليها فى أى شيء .. وكانت فى الجيش عناصر أخرى مستقلة عن هذا التكوين .. رفض تنظيم الضباط الاحرار التعاون معها .. وكانت فى الجيش عناصر انتهازية لم يكن من الصعب تحديدها واتقاء خطرها .

ومثلما كان من المستحيل الوصول إلى السيطرة الكاملة على

جميع ضباط الجيش وعناصره ، فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثر بالأحداث الجارية فى البلاد .. ولكن المبدأ الذى أتفقت عليه جماعة الضباط الأحرار منذ البدء هو ألا يؤدى هذا التأثر إلى أى عمل فردى .. وكان تأثر الضباط بالمتغيرات الجارية عاملا مساعدا لاكتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد ، ولتحديد دورهم تحديداً واضحا لا يحتمل أى لبس ، وكان من أهم المتغيرات التى حدثت هى حرب فلسطين .. لذلك فقد حان الوقت للقيام بعمل حاسم حتى لا يتحول الزمن إلى عامل مضاد لحركة الضباط الاحرار ... وخرجت المنشورات السرية لتقض مضاجع قادة الجيش ورجال القصر وحكامهم ... ولم تكن المنشورات ذات لهجة حماسية جوفاء بل تحددت فيها أهداف الشعب بوضوح وبأسلوب علمى .

لم يتحدد فى المنشورات مطلب للجيش أو لضباطه وجنوده .. كانت كل كلمة مستمدة من اتجاهات الرأى العام فى البلاد ... فالشعب يريد العدالة الاجتماعية ويرفض الممارسة الحزبية القائمة ويطلب القضاء على المستعمر وأذنابه ورفض الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك .. وقد طبع تنظيم الضباط الاحرار مئات المنشورات لتأييد وجهة نظر الشعب ، ومضى كل أعضاء التنظيم يكتل ضباط الجيش فى جميع الوحدات استعداداً لاندلاع الثورة الشعبية .

٥

أقبلت الأحداث والمتغيرات لدفع عجلة التاريخ بسرعة ، فقام الضباط الاحرار بواجبهم الوطنى فى عمليات الفدائيين فى منطقة القناة خلال عام ١٩٥١ ، ١٩٥٢ برغم ارادة الاستعمار ، والقصر ، والحكومة .. وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات ثورية داخل الجيش أكثر مما قدرت الهيئة التأسيسية للحركة .. وقد أصبح فى كل وحدة من الوحدات العسكرية أفراد منضمون لتنظيم الضباط الأحرار .. ونجحت الفكرة إلى حد كبير ، بينما الأمور فى البلاد تتطور بشكل سريع ومثير .. فقد وقع حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ ، واجتمع تنظيم الضباط الأحرار لتغيير الخطة كلها حتى تتلاءم مع الظروف الجديدة الطارئة ، وكانوا قد قدروا مدة خمس سنوات للقيام بالعملية الكبرى لكن ذلك الحدث الضخم كان نذيرا لكل التنظيم بالاسراع فى تنفيذ الخطة الجديدة .. وبالفعل اجتمعت الهيئة التأسيسية للتنظيم وقررت تقديم موعد قيام الثورة بدلا من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٢ .

فى أثناء حريق القاهرة صدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار فى القاهرة بمقاومة أعمال التخريب لأن القصر والاستعمار وأعوانهما سيمضون فى ضرب الحركة الوطنية بكل وسيلة ولا سبيل إلى مقاومة هؤلاء الأعداء إلا بثورة ، ولكن ليس بالتخريب أو الخطب الرنانة ، فقد كانت الثورة عملا علميا مدروسا من الطراز الأول .. ولذلك نجحت .. وكان الهدف الأساسى لها هو إعادة الكرامة للإنسان المصرى وحقه فى السيطرة على مقدراته .

من أجل هذا الهدف الجليل قضت الثورة على الاستعمار وأعوانه من الخونة ، وقضت على الاقطاع وعلى سيطرة رأس المال على الحكم كما طبقت العدالة الاجتماعية .. وسعت إلى إقامة جيش وطنى قوى لكن قوته الحقيقية لم تختبر بالفعل إلا فى حرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ .. عندما واجه العدو لأول مرة وجها لوجه .

٦

كل هذا كان من أجل كرامة الإنسان المصرى .

إذن ما الذى حدث لكى تنحرف الثورة عن مسارها من أجل بناء الإنسان المصرى ؟ وهو الانحراف الذى اضطرنى إلى تصحيحه فى ١٥ مايو ١٩٧١ – لقد انحرفت الثورة عن مسيرتها عندما صرفت النظر عن تطبيق المبدأ السادس والأخير من مبادئها ، وهو المبدأ الذى ينص على إقامة حياة ديمقراطية سليمة .. وكانت تلك هى القشة التى قسمت ظهر البعير .. وكانت الباب الذى دخلت منه كل السلبيات والنكسات التى بلغت قمتها فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

لقد نسى الجميع فى الستينات فى حمى التطبيق الاشتراكى المستورد أن مصر تملك من القيم والمثل والتقاليد ما يساعدها على مجاراة روح العصر ، بكل تطوره الحضارى ، وتحولت الاشتراكية إلى صنم لابد للإنسان المصرى أن يتعبد فى محرابه حتى ولو أدت هذه الطقوس إلى طمس مصريته .. وبدلا من أن تكون المبادىء الاشتراكية فى خدمة الإنسان .. تحول

الإنسان إلى خادم فى بلاطها ، لا يجرؤ على المناقشة أو التحليل أو حتى مجرد إبداء الرأى العابر .. وضاعت فى الطريق قيم كثيرة عاشت عليها مصر آلاف السنين .. ضاعت قيم الإيمان .. والكرامة .. والتسامح .. والتفاؤل والحب .. والصداقة .. بينما برزت على السطح قيم غريبة ودخيلة علينا تمثلت فى الالحاد ، والحقد .. والصراع .. والتشاؤم وأوشكت ملامح الإنسان المصرى أن تهتز وتتلاشى ، وهى الملامح التى عرفها عنه العالم على مر تاريخه الطويل وهذا ما يدفعنى إلى تأصيل هذه الملامح والدعوة إلى ترسيخ هذه القيم ، فهى أمانة فى عنق كل مصرى عليه أن يحملها ويؤديها من أجل خيره ومن أجل الحفاظ على كيان مصر لا اليوم فقط ونحن أحياء ، بل ومن بعدنا فى الغد القريب والبعيد على السواء .

الفصل الثالث

الايمان : بر الامان

١

كانت مصر أول دولة فى تاريخ الحضارة الإنسانية تصل إلى مفهوم محدد للإيمان يقترب كثيراً فى سماته من ذلك المفهوم الذى هبطت به الأديان السماوية فيما بعد .. وهذا أكبر دليل على مدى رسوخ الإيمان فى وجدان الشخصية المصرية التى تكونت على مدى سبعة آلاف عام من تاريخها الحضارى الطويل .. وأى تجاهل لهذه القيمة الجليلة فى حياتنا وتراثنا تجاهل فى نفس الوقت لأهم مقومات الشخصية المصرية .. وتاريخ شعبنا يؤكد أن فترات الاضمحلال التى مر بها كانت العصور التى ابتعد فيها الحكام وخلفهم الرعية عن حظيرة الإيمان .

كان الإيمان وسيظل الطريق الوحيد المؤدى إلى فهم المعنى الذى ينطوى عليه هذا الكون .. وإلى إدراك وحدته الازلية الأبدية التى تتبلور فى علاقة الحب الصافى النقى بين الخالق والمخلوق .. وهى العلاقة التى تحرص دائماً على تخليص الإنسان من الحدود المادية القاتلة التى تجبره على البقاء فى دنيا الحيوان بكل ما تحويه

من غرائز بدائية وانفعالات بربرية وشطحات وحشية .. وكل البشر – على اختلاف مشاربهم – لديهم هذا الجانب الروحى فى حياتهم سواء أعترفوا به أم أنكروه .. وإذا كان للجسد الكثير من المتطلبات فالروح أيضاً لها من المتطلبات ما هو أكثر حيوية بالنسبة لنمو الإنسان المتكامل .. لكن الجسد ينتصر فى كثير من الأحيان لأن ضغوط الحياة المادية والحاح الغرائز الحيوانية وصراع الغابة الذى يحكم حياة الأفراد كما يحكم حياة الشعوب ، كل هذه العوامل تجعل للجسد السيطرة المؤقتة على الروح وتنسينا القدرة على التأمل والتفكير .. فنحن نرهق أعصابنا وغرائزنا طوال العام فى انفعالات هذه الحياة التى نحياها.. نشقى ونسعد ونتألم ونفرح.. لكننا ننسى دائماً ونحن فى هذا الموكب أنه يجب أن نعود إلى نفوسنا ولو لبعض لحظات نستلهم فيها سر وجودنا وماهية رسالتنا على هذه الأرض .. وبذلك أصبح مرور الأيام وتعاقب الليالى شيئاً رتيبا مملا ، نحسه ولا ندركه ، ونعيش فيه ولكن لا نغوص فى سره .

هكذا خفتت شعلة الإيمان داخلنا ، وهى فى الواقع بين أيدينا .. إن أردنا أشعلنا نورها .. وإن أردنا أخمدنا جذوتها .. وهى أكبر دليل على أننا لم نخلق عبثا ، وكل إنسان منا يولد وفى عنقه رسالة عليه أن يؤديها حمدا منه وشكرا للخالق الأعظم الذى كرم الإنسان ونفخ فيه من روحه فجعله أشرف المخلوقات .. فهل يجوز لأشرف المخلوقات أن يتجاوز عن قيمة

الإيمان فى حياته وبذلك ينزل عما شرفه به الله فى خليقته ، فلا يرعى الحق والعدل وهما شريعة خالقه ؟

إن الإيمان بمفهومه الرحب الشامل قادر على أن يرتفع بآفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود هى من صنعنا ولكنها ليست من طبيعتنا أو تراثنا الذى يؤكد باستمرار على الدور الحيوى الخطير التى يتحتم على الإيمان أن يلعبه فى حياتنا . من هنا كان قولى فى « ورقة أكتوبر » :

كان من أبرز صفات هذا الشعب دائماً تمسكه بالإيمان واعتزازه بالاصالة .. أما الإيمان كما نفهمه اليوم فهو ذلك الإيمان النقى الخالص البرىء من التعصب والمتطهر من تلك الشوائب التى علقت بجوهره فى عصور الاضمحلال ، البعيد عما ينسب إليه زورا من روح التواكل التى لا تعرف المسئولية ، والتعلق بالخرافات ونفى دور إرادة الإنسان وإرادة المجتمع فى أن يواجه أمور حياته المتجددة مستعينا بما أودعه الله فيه من عقل ميزه به عن سائر المخلوقات .. وقد علمنا محمد رسول الله ﷺ هذه المعانى فى قوله : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم ، لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع » .. وليس الجهاد فى سبيل الله هو القتال وحده ، فقد قال لنا رسول الله ﷺ أيضاً « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » بل وعلمنا الجهاد بمعناه الاجتماعى العميق بقوله صلوات الله وسلامه عليه : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » .

٢

وليس أخطر على هذا الإيمان فى معدنه الحقيقى من الذين يجعلون منه نقيضا للعمل والبحث والعلم .. فالله عز وجل قد وضع طلب العلم فى مستوى الجهاد فى سبيل الله ، وجعله قرينا للإيمان حين قال سبحانه وتعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » صدق الله العظيم

هذا هو ما أكدته فى « ورقة أكتوبر » وأعود إلى تأكيده مرة أخرى لأجيال شبابنا المعرضة للعديد من التيارات الفكرية المستوردة والمتصارعة حتى يتخذوا منه أرضا صلبة راسخة يقفون عليها بأقدام ثابتة فى مهب هذه الرياح .. فلا خير فى أمة يتحول شبابها إلى ريشة فى مهب الرياح .. أننا لابد أن نتمسك بقيمنا الروحية والأخلاقية فى مواجهة موجة الاستمتاع المادى التى تعرفها مجتمعات الاستهلاك الغنية لأن تلك القيم هى من السمات الأصيلة لحضاراتنا .. ولأن المجتمعات التى تجاهلتها تعرف الشقاء النفسى وسط الوفرة المادية .

إن الإيمان هو الدافع الأساسى لتمسكنا بقيم التكافل الاجتماعى وتماسك الأسرة وسيادة مشاعر المحبة ونبذ الأحقاد .. فقد كانت تلك القيم هى العاصم للمجتمع فى أحلك الأوقات وهى السياج ضد نزعات الفردية المطلقة ، وانعدام المسئولية الاجتماعية ، التى تفكك المجتمع وتسلب الإنسان مشاعر ما أحوجه إليها .

إن الإيمان هو السلاح الذى وهبه الله للإنسان لكى يميز بين الحق والباطل .. بين الفضيلة والرذيلة ، بين الخير والشر وهكذا .. فى مختلف صراعات الحياة .. بل أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد لأن الإيمان هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى معرفة حقيقية لا تقوم على الخوف من العقاب أو الطمع فى الثواب ، ولكن تقوم على الاستيعاب الشامل ، والحب الناضج بين الخالق والمخلوق .. هذا كله يتأتى عن طريق التجاوب الفعال بين التنظيم العقلى والانطلاق الروحى .. ولعل المثل الشعبى المصرى خير ما يعبر عن هذه الحقيقة عندما يقول « ربنا عرفوه بالعقل » .. وبناء على ذلك فنحن نعيش فى كون معقول لأنه يتبع فى كلياته وجزئياته قوانين ثابتة وواضحة .. تسير على نهج محدد من الأزل إلى الأبد .. فهى لا تحير العقل بالمفاجآت أو بالتحولات ولا تلتبس على فهم ولا تستعصى على منطق ، لأن الله منح الإنسان روحا وعقلا لكى يدرك بهما

القوانين الالهية التى تحكم كل شىء ، من أكبر إلى أصغر جزء فى الوجود وتربط كل الموجودات برباط محكم . وهذه القوانين إلى جانب أنها ثابتة وواضحة فهى صارمة وقاطعة .. فالعالم تحكمه المطلقات ولا مجال فيه للعبث بهذه المطلقات وعلى سبيل المثال فأن الخير خير فى كل زمان ومكان . كان خيرا منذ آدم بل كان خيرا فى علم الله قبل أن يأتى آدم إلى الوجود وهو اليوم خير وسوف يكون خيرا حتى نهاية العالم .. كذلك الشر شر فى كل زمان ومكان .. كذلك الفضيلة فضيلة والرذيلة رذيلة ولن يلتقى الاثنان .

فإذا عجز عقل فرد عن فهم هذه المطلقات الصادرة عن العقل الأكبر المعقول فلا غبار على هذه المطلقات وإنما الغبار على عقل الفرد الذى فقد علاقته العضوية بروحه وجسده ، أما عقل الجماعة فلا غبار عليه ومهما ضل الفرد فالمجتمع عاقل ومعقول وإلا كان قد اندثر .. ولذلك فإن إرادة الشعب من إرادة الله ، وان الدين للعمران الدنيوى وليس فقط للحياة الآخرة ... لهذا امكن أن يحكم المجتمع بالقوانين المطلقة التى كان يمكن لعقل الإنسان أن يعقلها مع مرور الزمن لولا لطف الله به فهو الذى بادر فبلورها فى كتبه السماوية .. فى هذه الكتب ارتسم للإنسان طريقان واضحان لا ثالث لهما : طريق الغى وطريق الرشاد ، وكل منهما يفضى إلى نتيجته الحتمية وهى الجحيم للمخطئين والنعيم للمتقين .

وبما أن القوانين الدينية – والقوانين الدنيوية مبنية عليها – معقولة ، وبما أن الإنسان مخلوق عاقل ، اذن فقد تحددت مسئوليته عن أعماله وأفكاره ونواياه جميعا فى المسئولية كاملة لأن الإنسان مخير وهو مخير لأنه مميز .. وهو مميز لأن الله لطف به ...

٣

من هنا كانت حتمية الإيمان بالله والعمل بما أنزله فى كتبه السماوية .. ولما كان الإيمان هبة من عند الله كان الإنسان هو المخلوق الوحيد المسلح بأسلحة تمكنة من منازلة الشيطان ومحقه وكان الشيطان قوة خارجية تنازل الإنسان من الخارج .. فتجسم آماله حينا فى زى المال وحينا فى زى رفيق السوء .. وهكذا إلى آخره من مغريات الحياة الدنيا .. ولكن الإنسان الحقيقى بماله من إيمان راسخ وعقل مميز وروح مفطورة على الخير يستطيع أن ينازل هذه الأخطاء الخارجية ويمنعها من أن تتغلغل فيه وتفسد نفسه وعمله وفكره .. ولقد يخسر الفارس المحارب جولة أو جولات ولكنه فى النهاية فائز ومنصور إن هو اتخذ من العقل درعه ومن الدين سيفه .

والفرد المؤمن فرد مطمئن وكذلك المجتمع المؤمن فإن الطمأنينة لابد أن تسوده لأن العلاقات الإنسانية الثابتة والمطلقة هى التى تربط بين أفراده .. كل من فيه مطمئن إلى عدالة السماء،وإلى أن هناك قوة الهية أزلية وأبدية تنظر إلى المؤمنين

بعين الحب والرعاية ، فإن حدث خطأ بشرى ونضبت عدالة الأرض .. فعدالة السماء لا تنضب .. وهى تملك من قوى التصحيح على الأرض ما يثبت فاعليته الحاسمة فى الوقت المناسب والذى قد لا يخطر على بال بشر .. ولذلك فإن الإيمان هو السلاح الوحيد القادر على هزيمة تلك القوة الغامضة التى نسميها بالقدر .. قد لا نستطيع أن نحكم على أفعال القدر عندما تحدث ، ولكن بعد مرور وقت طويل نستطيع أن ننظر إلى الماضى ، فنجد أن الإيمان الذى نتذرع به عندما نعمل فى سبيل الحق ، هو دائما أقوى من القدر .

قد يظن الناس أن هذا الكلام من باب الوعظ ولكنه إذا تعمق معانيه سيجد أنها حقائق طالما حاولنا الهرب منها لأن نفوسنا لم تستمتع بلذة ممارستها .. فلقد خلق الله الإيمان فى قلب الإنسان من أجل تهذيب النفس الطائشة وتنظيم المجتمع البدائى .

والإيمان هو الوسيلة الوحيدة التى تجنب الإنسان فقدان مدلوله الإنسانى والاجتماعى حتى لا يتساوى وجوده مع عدمه .. فإذا كنا نقول أن للإنسان وجودا ذاتيا نابعا من كيانه الشخصى فأننا لابد أن نضيف البعد الاجتماعى الموضوعى إلى بعده الشخصى الذاتى حتى تتوافر شروط وجوده كانسان متكامل .. فالواقع أن الإنسان لا يوجد فى فراغ بل أن وجوده مرتبط بوجود الآخرين .. فالإنسان فى نظر الآخرين ليس هو

بالذات وإنما مجرد الصورة التى تكونت فى ذهنهم عنه ، وبذلك يختلف وجوده من شخص لآخر أى أن النسبية تتدخل حتى فى الكيان الشخصى للإنسان .. ونفس المعيار ينطبق على وجود الآخرين بالنسبة للإنسان .

لذلك فالوجود الفعلى للإنسان هو حاصل التفاعل بين كيانه ووجود الآخرين .. وهذا يؤكد أن فقدان الآخرين خاصة الأصدقاء منهم هو فقدان أجزاء من نفوسنا بكل ما تحمله من أمل ونبل وتضحية وعزاء .. فالعلاقة الإنسانية نسيج حساس لا يعتمد فقط على الحاجة المتبادلة لكنه يمتد ليشمل كل المثل والقيم والأخلاق والاحساسات والمعانى التى حرصت الإنسانية على تأكيدها منذ فجر الحضارة .. والإيمان خير ما يمد الإنسان بالاحساس المرهف الذى يمكنه من وضع العلاقات الإنسانية فى إطارها الصحيح ..فلا ينظر إلى الحياة فى ضوء قانون الغاب بل يسمو إلى الآفاق التى جعلت منه أعظم وأروع مخلوق على ظهر هذه الأرض .

٤

والتأمل الروحى الجاد ظاهرة مصاحبة للإيمان العميق ، لذلك فإنه من المفيد بل من الضرورى للإنسان أن يخلو إلى نفسه بين الحين والآخر حتى يحاسبها ويضع لها الإطار الذى يجعل اتصالها بالآخرين من أجل سعادة الإنسان . وهذا يذكرنا بسقراط عندما ينظر إلى الإنسان على أنه مخلوق فى مقدوره أن يفحص ويراجع ويتأمل أحوال وجوده فى كل لحظة من لحظات هذا الوجود .. ويرى سقراط أنه فى ضوء هذا التأمل تكمن القيمة الحقيقية للحياة .

يقول فى هذا : « إن الحياة التى لا توضع موضع التأمل .. لا تستحق أن تستمر » . من هنا كانت دعوتى إلى نبذ التشنج والجموح والانصياع لنزوات النفس .. فينبغى ألا ننساق وراء انفعالاتنا إلى حد التدمير .. ذلك لأن الأشياء تتغير باستمرار .. ولا يبقى إلا الجوهر الذى يجب أن نحرص عليه ونتمسك به وقديما قال سقراط : « لا تبدد نفسك ، لا تضيع طاقتك فيما لا يفيد .. لا تكن جامح الرغبة .. لا تكن ضحية

للتبشنج ، بل أملك زمام نفسك ، وانظر إلى الحياة نظرة مخلوق فان .. أما الأشياء التى حولك فإنها لا تمس النفس لأن تلك الأشياء خارجية وهى تتغير سريعا ولا يبقى منها أثر ولتذكر كم شهدت أنت من صور هذا التغير المستمر » .

هذا الإدراك الناضج لا يتأتى إلا من روح غمرها الإيمان .. وعقل تشرب العلم . والجمع بين العلم والإيمان ليس على سبيل الربط بين الأضداد كما يتبادر للذهن التقليدى لأول وهله .. لأن الإيمان قد يكون الامتداد العضوى للعلم .. وقد يكون العكس .. أى أن العلم يمكن أن يكون الامتداد العضوى للإيمان .. من هنا كانت ضرورة تطبيق شعار « العلم والإيمان » كشعار لمصر الحديثة ، وكمنهج للتكامل الفكرى الذى يلبى احتياجات الإنسان المادية والروحية فى آن واحد .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل ما بنيناه معرض للدمار ، إذا لم نقف ونبنى دولتنا الجديدة البناء الصحيح الذى لا يكون إلا على العلم والإيمان .. بالعلم لن نتخلف ابدا عن كل ما فى العصر من مستحدثات ولن نعيش ابدا متخلفين .. بل إن علينا أن نعود إلى حضارتنا وإلى ما بنيناه عبر تاريخنا وأخذ منه غيرنا وبنى عليه .. أما بالإيمان فسنكون دائماً قوة صلبة منيعة لا يستطيع أن يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد .. الإيمان بالله سبحانه وتعالى والإيمان بأرضنا وترابنا .. بكل شىء فى بلدنا .. الإيمان بتاريخنا .. الإيمان بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .. الإيمان الذى لا يتزعزع فى أننا بعون

الله وبإرادة الله سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة .

وتتجلى علاقة العلم والإيمان فى آراء العلماء والفلاسفة الذين قفزوا بالفكر الإنسانى قفزات واسعة .. يقول آينشتين مثلا مؤكدا ضرورة الإيمان لفكر العالم « إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية،والدين يشمل الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة والتى تكشف فى لمحات خاطفة عن بعض التفاصيل القليلة التى لا تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبى العميق .. والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا تستطيع ادراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الله » .

هذا ما يقوله عالم وفيلسوف دمغه معظم الدارسين بالمادية والالحاد . وهذا يؤكد بدوره أنه لا غنى لعلم مهما ارتقى وتطور عن الإيمان .. فالإيمان ضرورة حتمية سواء للعالم أو للرجل العادى لأنه لابد أن يؤمن الإنسان بدين أو بعقيدة أو بمبدأ أو بنظرية .. إلخ .. واسمى أنواع الإيمان هو الذى يرتفع بفكر الإنسان وسلوكه من عالم المادة المضطرب والمرهق إلى عالم المثال والروح .. ذلك العالم الذى ينبع منه الحق والخير والجمال .

يذكرنى هذا بحكمة قرأتها وأنا فى السجن فحفظتها عن ظهر قلب ثم دونتها فى تلك الكراسة التى احتفظ بها حتى اليوم ..

كانت تقول :

« خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق الشياطين من شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من الشياطين » .

كم نحن بحاجة لأن نفهم بعقولنا وأرواحنا وأجسادنا هذه الحكمة الخالدة وسط تيار الصراع البشرى المخيف الذى جرفنا ، وغمر كياننا وحياتنا بزخرف المادة البراق فغلبت شهوتنا عقولنا وأصبحنا شرا من الشياطين .

٥

أننا لا نحس السعادة وسوف لا نذوق لها طعما إلا إذا عدنا إلى عالم الروح .. وعالم الروح منبع الحق والخير والجمال .. فى هذا العالم ترتفع الغشاوة عن العين ليرى البشر نعيما رائعا ، وجمالا ساميا حين تتكشف لهم أسطورة الخلد وآية النجاة .. فى هذا العالم تصفو النفوس فلا يعود يستبد بها غضب ، أو حقد ، أو كراهية فهذه بضاعة المادة ، ووحى شياطين الدنيا الفانية .. فى هذا العالم يملأ القلب إيمان راسخ ، والإيمان ابدا هو القوة فى اسمى مظاهرها .. هنا فقط يبدأ أقدس وأعظم درس فى الوجود وهو الحب ، فيحب الإنسان الله لأنه الحق ، وهو الحبيب الذى بيده ملكوت كل شىء ، ويحب الإنسان كل الأشياء ، وهذه الأشياء من صنع يد واحدة هى يد الفنان الأعظم سبحانه وتعالى .

ولا شك فى أن محك أصالة أى فكر،هو التطبيق العملى له لاكتشاف مدى ثباته فى مواجهة عجلة الزمن وحركة المجتمع .. وكانت حرب أكتوبر المجيدة هى الامتحان الذى

اجتازته النظرية بنجاح باهر .. كان السلاح الحديث فى يد الجندى المصرى كما كان الإيمان فى قلبه واختلط هدير المدافع بأزيز الطائرات بقعقعة الدبابات بهتاف « الله - أكبر » وتحول جيشنا إلى طوفان هادر أغرق فى طريقه كل تحصينات العدو وأسلحته الحديثة بحيث ولى مذعورا كالأرانب الجبلية .. ذلك تأكيد لأجيال ما بعد السادس من أكتوبر: إن طريق العلم والإيمان هو الطريق المؤدى إلى التحرير والتعمير فى آن واحد .

الفصل الرابع

الحب : أروع نعم الله

١

فى عصرنا اللاهث هذا يجدر بنا أن نقف أمام قيمة كبيرة ورائعة جدا كدنا أن ننساها فى صراعنا اليومى من أجل تحقيق مطالبنا المادية .. هذه القيمة هى الحب .. الذى أخذ فى التضاؤل حتى كاد مفهومه أن ينحصر فقط فى المسألة الحسية على الرغم من أن الحب قيمة تمتد وتتسع لكى تشمل الكون كله بكل روعته وبهائه .. فالمفهوم الحقيقى للحب يبدأ بحب الله .. وهو مفهوم ليس جديدا على الفكر العربى إذ نجده عند فلاسفة الصوفية من أمثال جلال الدين الرومى ، وابن عربى ، وابن الفارض وغيرهم .. فالحب الإلهى فى نظر أصحاب الخبرة الصوفية هو « محو الحب بصفاته ، وإثبات المحبوب بذاته » وهو « خروج عن رؤية المحب إلى رؤية المحبوب » وهو أيضاً « الميل إلى الله بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه » كل هذه التعريفات تدل على المفهوم الصوفى للحب الإلهى الذى يؤكد أن الوجود الحقيقى للإنسان فى هذا الكون

موجود فقط فى الله عز وجل ، فلابد أن يتجرد عن كل ما عدا الله لكى يحيا ويوجد ويتحرك فى الله . ولذلك فالعبادة عند الصوفى هى الاتحاد بالله لأنها علاقة حب متبادلة بين الرب والعبد .

كنت فى شبابى قد تعودت أن أقرأ فى شهر رمضان بالذات قصيدة لشاعر المانى صوفى يردد دعاء حارا صادقا لله سبحانه ، وهو فى هذا الدعاء لا ينسى أنه يعيش على الأرض وهو يسبح بروحه فى ملكوت الله الأعلى ، ولذلك صدر دعاؤه رائعا جديدا يترجم عبادته لله وحبه المتقد فى نفسه ، وفناءه المتصل فيه . كل هذا تترجمه ألوان من هذه الطبيعة التى رسمتها لنا يد الخالق الحبيب فأبدعت وأذهلت .. استمع معى إلى ذلك الصوفى وهو يقول :

هو ربى الذى أعبد
هو ربى الذى أعشق
هو ربى الذى من أجله أريد أن أتالم
وأريد أن أتعذب
وأريد أن انفطر وأتمزق وأموت
انه يتغلغل فى عقلى
تغلغل الحرارة المباركة فى عظام شيخ محطم
ويندمج فى كيانى
كما يندمج العطر فى الزهرة

والثمرة فى الشجرة
والنور فى الظلام
فامنحنى يا الهى قوة الفكر
كى أعيش فيك كالأسد
وهبنى يا الهى روح التواضع
كى اقترب منك فى وداعة البنفسج
واسكب علىّ يا الهى ضوء القناعة
كى أنفذ إليك فى حكمة العباقرة
واغدق علىّ يا الهى فيض الصفاء
كى يغتسل قلبى فى مياهك الزاخرة
وجللنى يا الهى بروائع جمالك
كى اندمج فيك .. واسبح بحمدك .. دنيا وآخره

سنظل نشقى على هذه الأرض .. وسنظل نضل الطريق ، ولن نستمتع بهذه الحياة إلا إذا ارتفعنا فوق نفوسنا لنفكر فى خلق السموات والأرض .

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

هذه التسابيح الصوفية لا تصدر إلا عن قلب عامر بالإيمان العميق الراسخ ، قلب ذاق المباهج الروحية للحب الإلهى وأحس أن الحياة كلها لا تساوى شيئاً بدونها . قلب أدرك أن الإيمان بالله هو أسمى درجات المعرفة اليقينية ، إيمان قائم على الحب المتبادل وليس على خوف الإنسان من الرهبة الإلهية .

وعندما يغمر الحب الإلهى قلب الإنسان فإن كل المخاوف تتلاشى كما تنقشع الظلمة أمام النور .. يذكرنى هذا بالأيام التى قضيتها رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية ، كنت أكتب مقالة يومية بعنوان « رأى » وذات يوم كتبت أقول إننى لن أذكر الله إلا باعتباره صديقا لى أحبه ولا أخشاه ، لأن المنطق البسيط يقول أن وجود الحب يتنافى تماماً مع وجود الخوف ، إذن كيف أحب الله وأنا خائف منه .. ؟

٢

بعد نشر هذه المقالة ثارت مناقشة صاخبة تقول أن الخوف من الله جزء مهم من الإيمان ولكن تجربتى القديمة فى الخوف أكدت لىّ أن الله لا يمكن أن يكون عدوا جبارا منتقما إلا مع الكفار والملحدين الذين أنكروا وجوده وصمموا على السير فى طريق الجحيم .

ما أروع أن تتخذ من الله عز وجل صديقا وحبيبا .

إنه الذى يقول للشيء كن فيكون،وبالتالى إذا استشعرنا هذا الحب الإلهى فى حياتنا فلن يقف أمامنا العالم كله ، بل ستتحول حياتنا إلى سعادة حقيقية من ذلك النوع الذى أعيا البشر البحث عنه . لقد وضع الله السعادة بين أيدينا بدافع من حبه العظيم لنا .. ولكن على الإنسان أن يستخرج هذه السعادة بنفسه .. أى أن الآخرين أو الأشياء المحيطة بالإنسان لا تمنحه السعادة بقدر ما يستخرج هو منها السعادة ، وذلك عن طريق الأسلوب الذى ينظر به إليها .

من هنا يمكن لأى شىء ولكل شىء أن يمنح السعادة للإنسان مادام الأمر فى يديه .. أن حياتنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى . فهذه الأرض جزء من كون رائع يسبح بحمد الله ، إن فى نعمة الصحة سعادة ، وفى عاطفة الأبوة والبنوة سعادة ، وفى حب الأهل والأصدقاء سعادة ، وفى الحياة الزوجية سعادة ، وفى العمل سعادة ، وفى التأمل فى خلق السماوات والأرض سعادة ، وفى الأمل الذى يقهر اليأس سعادة ، وفى جمال الزهرة وفى خضرة الشجر ، فى انسياب المياة ، وفى وقفة الجبل ، فى طلوع الشمس وفى سحر القمر ، فى صفاء الروح ، وفى استقامة الخلق .. سنعرف الله .. فنسعد إلى الأبد .

ولعل أروع ما فى منطقتنا العربية أنها البقعة الوحيدة التى خصها الله عز وجل بحبه العظيم بأن جعل منهامهبط الرسالات السماوية كلها .. لذلك فأننى أفخر بأننى عربى . فمنذ فجر الحياة ووطننا يطفو بالنور ويستقبل من السماء كلام الله ورسالاته لكى يرسل بها إلى أطراف الأرض عدلا وطهرا ونقاء وسلاما .. من تراب وطنى انبثق نور قدسى هادىء سعى إليه موسى ليعود منه بشهاب قبس علهم به يصطلون . وهناك وفى روعة هذا النور ، كلم الله موسى تكليما .. ولما أن سأل موسى ربه طمعا فى أن يراه ، أمره جل وعلا أن ينظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فانك يا موسى سوف ترى الله.وتجلى مالك الملك

للجبل فجعله دكا ، وخر موسى صعقا .. ثم تاب .. هذه البقعة المباركة بكلام الله فى أرض وطنى ، وهذا الجبل الذى تجلى له ذو الاجلال والاكرام قطعة من تضاريس وطنى .

ومن دون نساء الأرض اصطفى الله مريم وطهرها على نساء العالمين . بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، وهناك تنحت إلى جزع النخلة ، نوديت ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وعادت بوليدها إلى قومها يتكلم فى المهد : انى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا .

إن مريم ابنة وطنى ، والنخلة من زرع وطنى ورسالة عيسى بزغت أول مابزغت فوق أرض وطنى .

ذلك النبى العربى خاتم الأنبياء ، وأكرم خلق الله على الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، شهدت أرض وطنى مولده الكريم ، وأظلت سماء وطنى شبابه الأمين ، وسعدت رمال وطنى بسعيه فوقها مهاجرا ومكافحا من أجل دين الله وتلقت البشرية على يديه أكرم الرسالات وأكمل دعوة أنزلت للناس .

فهل بعد كل هذا نبحث عن أدلة أخرى لكى نثبت محبة الله لهذا العالم ؟ إذن فحين يحب الإنسان الله أكثر من كل شىء آخر ، بل أكثر من نفسه ، فإنه إنما يأتى فعلا طبيعيا ، مادام الله هو الخير المشترك للكون كله ، ولسائر الأجزاء التى يتكون منها .. وإذا كان الإنسان جزءا من هذا الكون فإنه من البديهى أن الجزء

المتضمن فى أية وحدة كلية لا يمكن أن يحب ذاته حبا صحيحا .. إلا إذا أحب ذاته باعتباره جزءا من هذا الكل .. لا باعتباره فردا منفصلا قائما بذاته .. والإنسان بوصفه جزءا من الحقيقة الكلية الشاملة ، أو باعتباره مخلوقا يدين لله بكل ما يملك لابد أن يحب الله أكثر مما يحب ذاته ، وهو لا يحب الله حبا صادقا إلا حين يشعر بأنه ينتمى إليه ويصدر عنه .. ومن طبيعة كل مخلوق أن يبحث عن خيره الأسمى ، ولما كان الله هو خيرنا الأسمى .. فمن الطبيعى أن يتغلغل حب الله فى قلب الإنسان أكثر من أى حب آخر يرتبط بالرغبات البشرية المؤقتة .. وهذا يعنى أن حب الله هو الكمال الأسمى للإنسان ولذلك يحاول دائماً التشبه بخالقه ، لأنه يعلم بالحدس أو الشفافية أو الوجدان أن الله خلق الإنسان حبا فيه أى أن الحب كان السر الالهى وراء إيجاد البشر .

٣

وإذا كان من طبيعة الحب الناضج الشامل أن يكون متبادلا من الطرفين ، فبالتالى يكون الحب هو الباعث الذى يحكم رغبة الإنسان فى الرجوع دائماً إلى الله .. وهذا يجعل الكون كله تجسيدا حيا لمفهوم الحب الالهى المجرد . فالعلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة ضرورية لاستمرار المعنى من هذا الكون أصلا ، وهى صلة الكل بالجزء ، أو صلة الكمال المطلق بالطبيعة الناقصة . فالإنسان لا تكتمل إنسانيته وكيانه إلا بإدراكه للحب الالهى الذى يغمره ويغمر هذا الكون .

وكما أن هذا المفهوم يبدو واضحا عند المتصوفة المسيحيين وعلى رأسهم القديس توماس الأكوينى ، فقد أضاف إليه المتصوفة المسلمون تنويعة جديدة تتمثل فى ضرورة استبقاء الطابع التلقائى الصافى النقى للحب الالهى ، فوجهوا كل اهتمامهم إلى تجنب مفهوم المنفعة الشخصية أو السعادة أو الخير من تصورهم الشامل لهذا الحب . قيل مثلا عن رابعة العدوية أنها وضعت

ذات يوم فى احدى يديها نارا ، وفى الأخرى ماء ، وعندما سئلت عن المعنى وراء هذا قالت :

« سألقى بالنار فى الجنة ، وسأسكب الماء على النار ، فلا تبقى هذه ولا تلك ، وينجاب الحاجبان عن السالكين طريق الله ويتبين لهم المقصود ، ويشاهدون الله لا يدفعهم رجاء ولايفزعهم خوف ، افئن لم يكن رجاء فى جنة ولا خوف من نار ، لم يعبد الله أحد » .

أرادت رابعة العدوية بهذا القول أن تجعل الحب الالهى منزها عن المنفعة أو الغرض .

وفى مناجاة لها تخاطب الله عز وجل بقولها : « الهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنى أياها ، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا الهى من جمالك الأزلى » .

وذات مرة عبرت رابعة العدوية عن مفهومها للإيمان فقالت :

ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه » .

هذا هو الحب الحقيقى كما يتمثل فى أسمى درجاته وأرقى مستوياته . وفى اعتقادى أن كل الخير والحق والجمال فى هذه الدنيا ينبع من هذا الحب الذى لولاه لما قامت لهذا الوجود قائمة .. والإنسان الحقيقى لا يمكن أن يُدرك المعنى الحقيقى لوجوده دون المرور بهذه التجربة الروحية والوجدانية الرائعة التى

لابد أن تتحول إلى جزء من كيانه وفكره وسلوكه .. إن الإنسان الذى يحب الله دون طمع فى ثواب أو خوف من عقاب لابد أن يحب صنع يديه المتمثل فى الدنيا التى يعيش فيها ، وفى البشر الذين يحيطون به ، وبالتالى يمكن للعديد من السلبيات والصراعات التى تهدد المجتمع والفرد أن تترك مكانها للبناء والتقدم والتطور .. فإذا كان من أهم شروط حب الله انتفاء عنصر الغرض أو الهوى أو المنفعة الشخصية إلا أن من أهم نتائجه الخير الذى يعم الجميع ، وينشر معه الجمال ، ويعلى معه كلمة الحق .

٤

وإذا كان الحب هو العلاقة بين الله والإنسان فلابد أن يكون كذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان . فهذه النفحة الالهية السرمدية تسرى فى كل المخلوقات لكى تجنبها الصراع والفناء .. وعندما يدرك الإنسان أنه لن يستطيع أن يحقق وجوده أو خلاصه بمفرده ، فإنه لن يتردد فى اعتبار نفسه مسئولا عن وجود الآخرين وخلاصهم أيضاً .. إذن فالحب الإنسانى هو التجربة البشرية التى لا يريد فيها الإنسان أن ينجو بمفرده .. ولعل هذا ما عناه هيجل عندما قال أن الحب هو عبارة عن الاحساس بالكل ، وأن الأشخاص الذين يجمع بينهم الحب لابد أن يشعروا بأنهم يشكلون وجودا واحدا .

ويمضى هيجل فيقول أن المسيح عندما دعا الإنسان إلى أن يحب قريبه كنفسه ، فأنه لم يقصد بهذا أن يمنح الإنسان أخاه نفس القدر من الحب ، أو أن يكون حبه لأخيه معادلا من حيث القوة لحبه لنفسه ، وإنما كان يعنى أن ينسب الإنسان إلى أخيه قدرا مساويا من الاحساس بالحياة ، مادام الواحد منهما والآخر إنما يستمد الحياة من مصدر كلى واحد .

هذا المفهوم الفلسفى للصداقة بتجسد ببساطة فى المثل الألمانى الذى يقول : إن الصداقة هى أشهى ثمرة من ثمار الحياة .. ليس هذا على سبيل المبالغة الإنشائية بل حقيقة راسخة لو أدركنا أبعادها لاستطعنا أن نجعل من حياتنا وجودا أرقى . أن مفهوم الصداقة مثل مفهوم الحب تماما ، لابد أن يؤخذ بمعناه الشامل العميق خاصة أن معظم الصداقات فى أيامنا هذه أصبحت صداقات منفعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى الحقد الدفين والصراع الخفى ، ونسى الجميع فى غمرة الصراع اليومى من أجل لقمة العيش المعانى السامية التى تبثها الصداقة فى افئدتهم . فالصديق يمكن أن يكون أفضل من الأخ ، ذلك لأن الصداقة اختيار واختبار أما الأخوة فأمر واقع وتحصيل حاصل ، وقد تصيب وقد تخيب .

ومن الناحية السيكولوجية تعد الصداقة ضرورة حيوية فى هذا العالم الذى يجبر الإنسان دائماً على العزلة والانطواء واجترار آلامه بمفرده دون أن يشاركه فيها أحد .. وما أروع أن يجد الإنسان صديقا وقت الحاجة أو الشدة .

إن مجرد أن ينفس الإنسان عن مكبوتاته عند صديقه ، فإنه يأمن شر الانفجار الذى قد يورث العقد والهزات النفسية ، أو يؤدى إلى الانهيار الكامل أو ربما الانتحار . وعندما أتكلم عن الصداقة فليس هذا من وحى قراءاتى فقط بل بدافع من خبرتى الشخصية أيضاً . فقد افتقدت الصداقة كثيرا فى السجن عندما

وجدت نفسى فى الزنزانة ٥٤ بسجن مصر المركزى وليس لى أصدقاء سوى الجدران الأربعة التى تطبق على أنفاسى من كل جهة .

إن محبة الصديق ليست مجرد صورة من صور حب الذات وإنما هى مظهر من مظاهر الخروج عن الذات من أجل الاعتراف بقيمة الآخرين .

وإذا كانت الكراهية لا ترى فى الناس إلا تكرارا مملا لبعض العيوب النفسية والنقائص الأخلاقية ، فإن المحبة لا ترى سوى القيمة المطلقة لكل فرد من الأفراد ، فترى فيه وحده شخصية كلية لايضارعها شيء آخر فى الوجود . تبدو الكراهية دائماً مندفعة ومتهورة بلا مبرر منطقى أو إنسانى ، ذلك لأنها فى حقيقتها عبارة عن حكم متسرع أهوج ، أو نظرة سطحية عابرة ترفض الاعتراف بما يمثله الآخر من قيم إنسانية وروحية ، أما المحبة فأنها على النقيض من ذلك تماماً ، انها التجسيد العملى للتأنى والروية ، أو نوع من وضع الآخر فى الاعتبار على سبيل فهمه وإدراك ذاتيته . فالصداقة تقرأ الباطن وتركز على الجوهر بينما تقتصر الكراهية على التأويل السطحى والتفسير الظاهرى لسلوك الآخرين .

٥

والإنسان الذى يفقد القدرة على حب الآخرين والاستمتاع بصداقاتهم ، يجعل من قلبه مرتعا لمشاعر الكراهية والحقد والصراع وبالتالى تصبح ذاته صلبة قفرة تفتقر إلى الخيال الرحب والنظرة الموضوعية والبصيرة العميقة . هذا الإنسان بطبيعته عاجز عن تعمق ذاتية الآخر ، أو التعرف فى شخص صديقه على معنى القيم الإنسانية والروحية التى يحملها ، وبالتالى يظل دائماً غريبا منعزلا فى صحراء قفراء ليس فيها سوى الفراغ والخواء .. وهذا يذكرنى برواية الروائى الأمريكى المبدع لويد دوجلاس (السحر الأعظم) والتى قال فيها إن الإنسان عندما يعثر على صديق حقيقى فإنه يضيف جزءاً حيا إلى كيانه وروحه ، وعندما يفقد صديقا فانه يفقد جزءاً عزيزا على نفسه يشعر به وهو يقتطع اقتطاعا من كيانه وروحه . وقد جربت هذا بصفة شخصية وبكل المرارة والألم لأننى عندما امنح صداقتى لأى إنسان أمنحها كاملة غير منقوصة بلا تحفظات .. لكننى كثيرا ما فوجئت بمن يخون عهد الصداقة اعتمادا على ثقتى الكاملة فيه .

وبرغم الخيانة التى تجعلنى أرفض مثل هذه الصداقة رفضا نهائيا وباتا ، إلا أننى كنت أشعر بالمرارة فى حلقى والألم فى نفسى لأننى فقدت إنسانا كان صديقى فى يوم من الأيام .

إن الصداقة هى مظهر من مظاهر الإيمان بقيمة الإنسان ، واعتراف ضُمنى بالامتياز الخاص الذى تتمتع به كل ذات إنسانية على حدة ، أى أن هناك من القيم الإنسانية ما يساوى عدد ما هناك من أصدقاء .

وعلى حين أن الصداقة تريد دائما أن تفهم نجد أن الكراهية لا تفهم أو تخشى الفهم أولا تريد أن تفهم ، لأنها تدرك فى اللاشعور أنها لو فهمت ، لما استطاعت أن تستمر فى تيار الحقد والصراع والانتقام ، إن الفهم الموضوعى الشامل العميق يتنافى تماماً مع وجود الكراهية ذات الأفق الضيق والنظرة السطحية .. فالكراهية تضخم من ذات الإنسان إلى الدرجة التى تعميه فيها عن رؤية ذوات الآخرين .. فهى قد تهتم بالتفاصيل والجزئيات ، ولكنها تعمى عن رؤية الحقيقة الموضوعية فى شمولها .

لكن الصداقة ترى الكليات فى الجزئيات وبالتالى تحتفظ لنفسها بنظرة ثابتة تستمد ثباتها من موضوعيتها التى لا تميل مع الهوى .

ويتسع مفهوم الصداقة ليشمل الكون كله ، فالصداقة الحقيقية صداقة الحياة .

وإذا كانت الأديان السماوية تدعونا إلى المحبة والصداقة والإخاء .. فهى لا تقصد بهذا محبة الأخ أو الصديق أو المواطن فقط .. بل محبة الإنسان فى كل زمان ومكان . والصداقة الحقيقية بين الشعوب ليست سوى الثمرة العملية لهذا المفهوم الشامل للصداقة .. ولنا أن نتخيل عالما تحكمه مثل هذه الصداقة بين شعوبه . ولما كانت الصداقة مظهرا من مظاهر الخصوبة أو الامتلاء من الداخل .. فإن الإنسان لا يستطيع أن يحب أو يصادق إلا إذا كان يملك أن يهب أو يمنح . بهذا المعنى يمكننا تعريف الصداقة بأنها صورة من صور الإنتاج أو الخلق أو الابداع أو القوة الحقيقية .. وهذا يذكرنا بقول الفيلسوف الألمانى نيتشه فى كتاب « إرادة القوة » .

« إن الفرد القوى بكل معانى الكلمة إنما هو الذى يملك من الشفقة والنبل وعظمة النفس ما يجعله يمنح ، دون أن يكون الأخذ فى اعتباره فلا تكون صداقته مجرد مظهر من مظاهر الرغبة فى التفوق أو الامتياز .. هنا يكون المنح هوالنمودج الصحيح لمفهوم الصداقة عنده ، وتكون شخصيته الزاخرة بالمثل والقيم السامية المنبع الذى يتدفق منه كل محبة صادقة وصداقة حقيقية » .

هنا تتجلى الصداقة الحقيقية ، فالصديق الحق لا يحب نظيره فقط ، .بل يتجه بصداقته نحو سائر اخوته فى الإنسانية وفى مقدمتهم الضعيف .. والغريب .. والمسكين وهذه هى أخلاق

القرية المصرية التى تعتبر كل من على أرضها عضوا فى أسرتها . ولذلك رسخت قيمة الصداقة فى وجدانى منذ طفولتى المبكرة فى ميت أبو الكوم . وحين أقول الصداقة ، فأننى أعنى تلك المعانى السامية التى تربط بين القلوب وينتفى فيها – أساساً – الغرض . لذلك كنت أغضب من كل نفسى حينما أستمع كما يستمع الناس إلى قصص هذه الحياة التى تحدثنا عن العبث بالصداقة أو الاستهانة بها بين صديقين ، تماماً كما أغضب حينما يعبث بهذه الصداقة فى المحيط الدولى بين دولتين .

ولقد سبق لى أن كتبت فى صحيفة « الجمهورية » فى ٣ مارس ١٩٥٤ حينما كنت رئيسا لتحريرها ، قلت :

« تعودت دائماً أن أختزن الألم فى نفسى حين أعانيه . ولقد مرت بى صنوف كثيرة من هذا الألم . تألمت فى السجن لأن من حبسونى اتهمونى بأننى أتآمر على عميل من عملاء بريطانيا عدو بلادى اللدود فعانيت وتحملت ، واتهمتنى رئاسة الجيش أيام فاروق أننى خنت عهد ملك بريطانيا حليفة فاروق – وقتذاك – فطردت من الجيش واعتقلت ، ومرة أخرى عانيت واحتملت .

٦

ولكن شيئاً واحدا عانيته ولم أستطع أن أتحمله . ولم أستطع أن اختزنه فى نفسى فقد كنت أشعر أنه إذا ما استقر فيها لابد أن يطمس جمالها ، وأن يعكر صفوها وأن يزلزل فيها الهدوء واليقين . ذلك الشيء يا أخى هو خيانة الصديق أو الزميل .

ولقد فتحت لى الآلام التى اختزنتها من داخل نفسى بابا مشرقا رائعا هو التأمل .

تأملت فى هذا الخلق : يحبون ويكرهون ، يفرحون ويألمون ، يؤمنون وينكرون .. واليوم وأنا أتذكر كل هذا أحس فى نفسى نشوة رائعة حبيبة .. نشوة أجمل من الحب لأنها لا تعرف الكراهية ، ولا تأبه للألم .. ولعلها بدء المعرفة .

والصداقة – كضرورة أخلاقية – لا تعنى فقدان المعايير الموضوعية والحكم على كل ما يفعله الصديق بأنه صواب .. بل أن الصداقة الحقة تحتم الصدق الموضوعى مع الصديق قبل أى اعتبار آخر ، ولو أثارت هذه الموضوعية غضب الصديق لما استحق هذه الصداقة أيضاً . فالصداقة لاتعنى الزيف والبهتان

والخداع والتضليل والتحايل ، بل تعنى مواجهة الحقائق مهما كانت مرة .. ثم اصلاحها فى صدق وإخلاص . فمثلا عندما قمت بإنشاء دار جريدة « الجمهورية » فى أواخر عام ١٩٥٣ دخلت فى دوامة رهيبة بسبب صراع مع القيم البالية التى رسخت منذ صحافة العهود السابقة التى كانت تؤجر للحزب الذى يدفع أكثر . وكانت العلاقات زاخرة بالصداقات الظاهرية التى يتلوها فورا – الطعنات من الخلف .

عندما جاءت عملية ترشيح المحررين أدركت مدى الحضيض الذى بلغته صحافتنا . فكلما رشح لى البعض أسماء معينة أبدأ فى السؤال عن أصحابها ، فاسمع بعد السؤال طعنا شديدا فى أصحاب هذه الأسماء .. كان يرشح مثلا خمسة . فاسمع طعنا فى أربعة وفى اليوم التالى أسمع طعنا فى ثلاثة ثم فى اثنين .

وعرفت حقيقة مخزية ، عرفت أن كل إنسان منهم يكره الآخر ، وإن لم يكن يعرفه ! المسألة كانت محنة أخلاقية تمر بها صاحبة الجلالة ! ولم أكن أدرى فى تلك الأيام ! هل المسألة هى أننا نكره الخير لبعضنا أم المسألة أعمق من هذا ؟ على أية حال لقد استمعت إلى أراء كثيرة فى أناس كثيرين ولم تكن كلها صحيحة أو لوجه الله !

وكانت أسرة التحرير فى أثناء هذه العمليات المتشابكة المعقدة العديدة تكبر ويزداد عدد أفرادها وعندما بدأنا نعد التجارب أى « البروفات » اكتشفت مسألة خطيرة تتصل بعلاقات الزملاء بعضهم ببعض . فهذا لا يحب ذاك . والثانى لا يستلطف دم الثالث . وجعلت من مسألة تسوية الخلافات بين أفراد أسرة التحرير جزءا من عملية اعداد الجهاز الكبير — لكن تبين لى أن بعض المحررين — وكانوا من أصدقائى — قد فهموا أن أنور السادات — صديقهم — يجب أن يضعهم فوق رأس الجميع وكانوا مخطئين ! ولكى لا تحدث مأساة تؤثر فى سير العمل اضطررت إلى الضرب بشدة ، وبقسوة لكى أثبت للزملاء جميعاً أن الصداقة شىء والعمل شىء آخر . فأنت صديقى وهذا شىء لا خلاف عليه ولا أنكره .. أما أنك تملك كفاءات لا وجود لها عند الآخرين ، فذلك يحتاج منك إلى دليل . والصداقة ليست دليلا على الكفاءة .

٧

هكذا كان موقفى مع أصدقائى ، كان حتما علىَّ أن أعطيهم درساً ما كان أغناهم عنه ، لو كانوا قد آمنوا بالعمل ، لا بالعواطف ، فالتوازن بين العقل والعاطفة ضرورة يحتمها النضج الفكرى للإنسان . فالصداقة وإن كانت فى أساسها عاطفة من أسمى العواطف الإنسانية إلا أنها فى حاجة إلى سياج عقلى يحميها من شطحات العاطفة . ولعل المقاييس الموضوعية خير حماية للصداقة الحقة القادرة على اجتياز اختبار الزمن .

وفى نفس الوقت فإن الصداقة تستطيع أن تمنح هذه المقاييس الموضوعية الكثير من العلاقات الإنسانية واللمحات الخصبة التى تحيل جفاف العمل وصرامته إلى متعة يشارك فيها كل الأصدقاء والزملاء ، وبذلك يزداد الإنتاج بأزدياد روابط الصداقة ومتانتها .

وفى اعتقادى أن الصداقة كانت السياج المتين الذى احتفظ بتماسك الضباط الأحرار وصلابتهم إلى أن قامت الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فقد أضطلع بقيادة هذه الثورة لفيف من

شباب مصر ، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة مجتمعين تحت رايه المبادىء الستة التى أعلنوا عنها عند قيام الثورة . وقد تبينت قيمة الصداقة التى جمعت بين هؤلاء الثوار حينما دقت الساعة وحانت اللحظة الحاسمة التى تعرضوا فيها للمحنة الفاصلة بين النجاح والفشل أو بعبارة أخرى بين انتصار المبادىء وأعواد المشانق ، فكانت وقفتهم صفاً واحداً ، وكتلة متراصة هى حجر الزاوية فى نجاح الثورة .

لقد اجتمعوا قبل الثورة على مبادىء لا علاقة لها بالأشخاص وكانت صداقتهم بهدف حبهم لمصر أولا وأخيراً ،ولا صلة لها بالرابطة التى كانت تجمع الأحزاب المنحلة ، رابطة المبادىء المجردة من المطامع والأسباب . لا يسهل فكها ولا يمكن أن تنفصم مهما يحدث من خلاف أو تعارض بين وجهات النظر ، ذلك لأن جوهر الخلاف لا يتعلق بنزاع على مغنم أو تهافت على منصب . قد يحدث، بل لابد أن يحدث بين أفراد أية جماعة من الأصدقاء ، تباين فى زوايا النظر إلى مسألة معينة أو أكثر ، ولكن هذا التباين بين أصدقاء حقيقين لا يمكن أن يفض ما بينهم من رباط مقدس ، فهذا الرباط هو الجوهر النقى الطاهر الذى لا تنفصم عروته ، وأما الخلاف وتباين وجهات النظر فهو عرض لا يمكن أن ينال من روعة الجوهر .

وإذا كانت المبادىء الموضوعة تعتمد أساساً على العقل ، فإن الصداقة الأصيلة تنهض على العاطفة والعقل فى آن واحد . من هنا كانت الصداقة هى الضمان الرئيسى للحفاظ على أواصر العلاقة بين الزملاء إذا حدث اختلاف فى الرأى حول المبادىء . فقد يجتمع الناس حول مبادىء ، حول نظريات يقرءونها ويعتنقونها أو أفكار يبشر بها دعاتها . وقد يبلغ بهم الاقتناع بهذه المبادىء والنظريات والأفكار غايته ، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته وما بعد الذروة أن صح هذا القول ، ولكن هذه المبادىء والنظريات قد تتعرض للجدل فتتعرض الجماعة للانقسام وقد يتفاقم الجدل فينحرف عن الآراء إلى أصحابها وتبرز الأشخاص وتختفى الآراء ، وتتلاعب أهواء النفوس ، ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه . هنا يبرز رباط القلوب وقيمته فى الحفاظ على رباط العقول من أن ينفصم . لأن الصداقة تمنح بعداً آخر للتفاهم وتعمقه . فالأصدقاء خير من يفهم بعضهم البعض بحكم التوافق فى المشاعر والأهداف والحرص على أواصر هذه الصداقة من أن تنفصم لأن من السهل على الإنسان أن يتخلص من الرابطة العقلية ولكنه من الصعب عليه أن يتخلص من العلاقة العاطفية المترسبة فى الوجدان والشعور .

لست أكتب هذا غضاً من قيمة المبادىء والنظريات . فما استحق الحياة من لا مبدأ له ، يعيش من أجله . ولكننى فقط أرى أن المبادىء وحدها لا تكفى لأن الرِباط الذى يربط العقول لا يستطيع دائِماً أن يربط القلوب ، وأن يذيب الهوى ويقتل الاطماع . ولذلك تعد الصداقة – فى تقديرى – ضرورة أخلاقية يجب التأكيد عليها دائماً ليس فقط بين الأصدقاء ولكن على جميع المستويات فى المجتمع فإن وجودها سيشغل فراغا من المحتمل أن يزخر بالسلبيات والمؤامرات والدسائس فى حالة غيابها . فإن كانت علاقة العقول ترتبط بالمصلحة وما ينتج عنها من ذاتيه قد تبلغ حد الأنانية . فإن صداقة القلوب يمكن أن تحد من أثره الانا وأنانية الذات بحيث يستطيع الإنسان أن يخرج من ذاته ويرى الأشياء بموضوعيه أكثر وأعمق . هذه الموضوعية هى الشرط الأول والرئيسى لتقدم الأمة بصفة عامة . واليوم الذى ينظر فيه كل مواطن إلى زميله فى نفس الوطن على أنه صديق وأخ حتى بدون أن يعرفه شخصيا ، هذا اليوم سيكون بمثابة فجر التقدم الحضارى الحقيقى .

الفصل الخامس

الروح والعقل والجسم

١

حتى يعيش الإنسان فى توازن سليم لابد وأن يحصل على تعادل دقيق بين العقل والجسم والروح .. فإذا اختل هذا التوازن بين العناصر الثلاثة فسوف يهتز الإنسان فى حياته وسلوكه وبالتالى فى كل القرارات التى يتخذها .

هذه اللمحة التى أذكرها الآن قد تكون شخصية بحتة ، ولكن لارتباطها الوثيق بمفهومى للتوازن بين الروح والعقل والجسم رأيت أن اتحدث عنها حتى أسجل الخلفية الفكرية والوجدانية التى واكبت لحظات ما قبل الثانية بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

عندما استيقظت صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وأديت التمرينات الرياضية لكى أعطى جسمى حقه .. كان عقلى فى منتهى النشاط والراحة وعلى استعداد تام لتحمل مسئوليات اليوم الجديد .. فعندما يحصل الجسم على لياقته فإن هذا ينعكس بدوره على العقل لأن العقل السليم فى الجسم السليم – أما روحى فكانت فى شبه صلاة صامتة من أجل اليوم الذى

سنحطم فيه جدار الصمت والخوف والرعب والانهزامية .. لقد عقدنا العزم على اجتياح كل ما يعوق مسيرتنا وليكن ما يكون . فقد كانت حساباتى تدل على أن المكسب لنا مهما كانت النتيجة .

هذا نموذج عملى من حياتى يدل على ضرورة التوازن بين الروح والعقل والجسم فى حياة الإنسان .. وعندما ينطلق الفكر إلى مراجعة وسرد تفاصيل الواقع الذى خضته أحس بالاشفاق على نفسى .. فقد تحملت فى شبابى مسئولية اتخاذ قرارات وطنية كثيرة ، ولكن على قدر ما كانت هذه القرارات تمثل عمليات خطيرة إلا أن مسئوليتها كانت دائماً محصورة فى الأفراد القلائل الذين يشتركون فى تنفيذ القرار .. وكان أثرها هو المساهمة فى العمل الوطنى لا أثرا يتعلق به مصير مصر كلها .. وبعد الثورة أصبحت مسئوليتى أقرب إلى مجرد ابداء الرأى وإلى المساهمة فى تنفيذ ما يصدره مجلس قيادة الثورة من قرارات حتى انتهاء عمله عام ١٩٥٦ بعد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية ثم مشاركتى وصحبتى لجمال بعد ذلك . إلى أن أصبحت مسئولية إصدار القرارات هى مسئوليتى .. وفرق كبير بين مسئولية إبداء الرأى ومسئولية اتخاذ القرارات . إن مسئولية إبداء الرأى تنعكس عليك وحدك ، ومسئولية اتخاذ قرار تنعكس على الأمة كلها .

وقد عانيت وتحملت كثيراً قبل اصدار كل قرار ، ولم يكن

ما أعانيه هو تحديد الموقف الذى اتخذه فى مواجهة الحدث أو الواقع الذى يواجهنى ، ولكن ما كنت أعانيه هو اتخاذ القرار الذى يعبر عن هذا الموقف .. هل هذا هو القرار الصحيح أم قد يكون قراراً خاطئا ؟ هل ظلمت أحداً أم كنت محقا ؟ وكنت أقضى أياما وليالى طويلة منعزلا صامتا حتى يخيل للبعض أن ليس هناك مشكلة تشغلنى ، ولكننى كنت فى هذه الأيام والليالى أعانى أصعب ما يحتاج إليه إنسان مسئول ، وهو اقناع النفس إلى أن يصل إلى رضاء الضمير .. وكان رائدى فى هذا المجال هو التوازن الدقيق بين الروح والعقل والجسم .

كان هذا هو الأساس الذى أعتمد عليه قبل مواجهة أمتى بالقرار الذى اتخذته .. اقناع نفسى وارضاء ضميرى .. وهذه قمة الراحة النفسية التى يمكن بها أن تتحمل كل ما يعترضك من صعاب والتى تستطيع بها أن تصر على موقفك وقرارك مهما تجمعت القوى ضدك حتى لو ضحيت بنفسك فى سبيل قرارك .

وقد تحملت المسئولية بعد عبد الناصر ومصر كلها ضائعة ممزقة .. الأرض ضائعة والحكم ضائع بين عدة قوى متصارعة ، وقوة إسرائيل تقف أمامنا على الضفة الشرقية للقناة ، وقوى أجنبية تحاول أن تفرض علينا وصايتها وإرادتها ، والفقر يجثم على كاهل كل مصرى .. إننا نكاد نستجدى السلاح ، بل نستجدى لقمة العيش وهنا كانت تبرز قيمة

الجانب الروحى فى حياتى لتنتشلنى من كل هذا الخضم .

يارب كيف أواجه كل هذا .

يارب لا تحملنى أكثر مما أطيق .

يارب لا تحمل على إصراً كما حملته على الذين من قبلنا .

رب إنى أعيش بما قدرته لى فأعنى ولا تتخل عنى .

كنت أتوجه إلى الله وأنا حائر : من أين ابدأ وكيف ابدأ ، إلى أن استعجلت مراكز القوى عملية الصراع فكان أن اتخذت أول قرار رئيسى وهو تصفية مراكز القوى المتصارعة التى تعمل لتحطيم الحكم ووقف المسيرة .. ولم يكن هذا القرار سهلا .. إن أصعب ما يواجهك عندما تستغنى عن خدمات شخص هو اختيار من يحل محله بحيث لا تترك المركز فارغا ولو ليوم واحد ، ثم القدرة على أن تتخذ موقف القاضى وتصدر حكمك بالادانة وأنت مقتنع بحكمك مستريح الضمير حتى لو كان هذا الشخص قد سبق أن عرفته وعملت معه .. وخلفيات مثل هذا القرار وحده كثيرة وذات أبعاد متشعبة تعود إلى سنوات طويلة قبل أن أتحمل المسئولية كاملة .

ثم كانت معاناة أخرى أقسى وأشد تحملتها مع كثير من الجهد فى البحث عن الطريق الصحيح إلى أن اتخذت القرار الرئيسى الثانى .. وهو الاستغناء عن الخبراء السوفييت . ولقد عشت شهورا وأنا متردد أحاسب نفسى قبل اتخاذ هذا القرار ،

فمصر فى حاجة إلى صداقة الاتحاد السوفيتى .. فهل أستطيع أن أطور أسلوب وخطوط هذه الصداقة مع الاحتفاظ بها ؟ وقد كان هناك ما هو أقوى من ترددى ، كان الأقوى هو احساسى الوطنى بمصر . ولا أستطيع أن أكون ابنا لمصر يتحمل مسئوليتها ومصر تواجه الصلف الإسرائيلى على جزء من أراضيها دون أن نتحرك ودون أن نحارب . ولهذا اتخذت قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت بخلفياته الحساسة الرهيبة لكى أحارب وأنا كامل الاقتناع مرتاح الضمير . ومرة أخرى كان التوازن بين الروح والعقل والجسم هو الصخرة العتيدة التى أصدرت من عليها القرار الخطير وأنا مرتاح الضمير .

ثم اتخذت قرار الحرب .

إن أحدا لا يستطيع أن يقدر المعاناة التى يتعرض لها المسئول عن اتخاذ قرار الحرب ، ولقد عشت حياتى كضابط يعيش الحرب أو يعد نفسه للحرب ، واتخذت بعيدا عن الجيش قرارات لعمليات وطنية تقوم على اطلاق النار ولكن كل هذا لا يقاس بمسئولية اتخاذ قرار حرب تشمل الأمة كلها .. والجيش كله ، إن كل فرد سأدفعه بيدى إلى خط النار ، وكل فرد قد يصبح شهيدا كما أصبح أخى عاطف .. ثم من يضمن نتيجة هذه الحرب ؟ لا أحد يستطيع أن يضمن نتيجة أى حرب .. الله وحده .. ورغم ذلك فهناك دائماً الدافع الأقوى من كل شىء .. دافع الاحساس بمصر وما تريده

مصر .. وإثبات وجود مصر .. مصر لاتزال تعيش ولاتزال قادرة على الحرب ولقد كنت وما أزال أثق ثقة كاملة فى قواتنا المسلحة .

وبعد تحليلى الدقيق لمعركة ١٩٦٧ بكل ما فيها من مرارة أصبحت أثق ثقة كاملة فى أن قواتنا المسلحة كانت ضحية من ضحايا الهزيمة وليست أبدا سببا لها .

وقد أكتشفت هذه الحقيقة ليس فقط من فوق أرض المعركة ، وإنما أيضاً من على أرض الوطن كله .. وكان هذا الداقع وحده هو ما يؤيد قرار الاعداد للحرب وهو الذى دفع رجالنا إلى الحرب وكأن كلا منهم قد اتخذ القرار بنفسه . فكل منهم يحارب لأنه يريد الحرب لا لأنه ينفذ قراراً بالحرب وكان هذا هو ما حقق معجزة العبوز .

٢

فى كل هذه القرارات المصيرية كان سندى الرئيسى هو التوازن الدقيق بين روحى وعقلى وجسمى .. لم أكن أهمل أى عنصر من هذه العناصر الثلاثة الحيوية حتى فى أحلك الظروف وأشد الأزمات .. وكيف أهملها وهى القنطرة الوحيدة التى سأعبر من فوقها المحنة أو الأزمة ؟ .. لقد ثبت لى بالتجربة العملية أن بناء الإنسان لن يتأتى أو يتكامل إلا بتدريبه على ممارسة هذا التوازن الدقيق بين الروح والعقل والجسم .. وقد تكلمت فى الفصل السابق عن الإيمان كغذاء للروح ، والآن حان الوقت للتكلم عن الغذاء الذى يتحتم على العقل والجسم الحصول عليه .

لا شك أن العلم والثقافة هما غذاء العقل ، ولذلك أكدت فى « ورقة أكتوبر » عليهما كهدفين متلازمين ، خاصة أن أهم ما طرأ على منطق التعليم والتثقيف فى عالمنا المعاصر هو زوال المسافة بين الفكر والعمل .. وبالتالى لم يعد التعلم مسألة

مقررات دراسية جامدة بحيث تقف مهمة التعليم عند استيعاب الطالب لها .. ولكن أصبح التعليم مرتبطا ارتباطا عضويا بحركة المجتمع ومتطلباته .. ويعنى ذلك أنه آن الأوان للعقل المصرى لكى يربط بين ما يتلقاه من تعليم وتثقيف وبين ظروف المجتمع الذى يعيش فيه ، وبالتالى فإن التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان متلازمان .

الأول : هو ايجاد الفرد المتعلم المستنير بحيث يكون أكثر فهما واتساقا مع مجتمعه وعصره .. وأكثر قدرة على استيعاب ثمار المعرفة الإنسانية والاستمتاع بها ، وأكثر تفهما للقضايا العامة فى بلاده وفى محيطة وبيئته التى يعيش فيها .

الثانى : هو تزويده بخبرة متقدمة محددة تمكنه من القيام بالدور الذى يتناسب مع هذه الخبرة فى شتى مواقع العمل والإنتاج فى بلاده .

وتحقيق هذه الغاية يستلزم عدة أمور منها عدم صب التعليم فى قوالب واحدة بل العمل على تنويعها قدر الامكان حتى تلبى شتى أنواع الخبرات والتخصصات والمهارات المطلوبة فى عملية التنمية التى تنهض بها على جبهة عريضة .. منها ربط أنواع معينة ومراحل معينة من التعليم بالبيئة .. سواء أكانت الريف أم الحضر .. الحقل أم المصنع .. فبذلك لا نعانى من مشكلة الارتداد إلى الأمية حين ينفصل الطالب عن المدرسة ويعود إلى

بيئته . وبالمثل لا نعانى من الوجه الآخر للمشكلة ، وهو هجرة المتعلم من بيئته وبالتالى افقار هذه البيئة دائماً من مردود انتشار التعليم فيها .

ويؤدى هذا بدوره إلى توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها وبين مواقع العمل ذات الصلة بتخصصاتها من مؤسسات وشركات إنتاجية أو تجارية وغيرها فى عالم تلعب المعرفة فيه دورا متزيدا فى تطور القدرة الإنتاجية . كذلك يتحتم علينا القضاء على فكرة الفارق الاجتماعى بين تعليم وتعليم ، فبهذا نسد حاجة البلاد إلى كل المهارات والخبرات ونعلى قيمة العمل بوصفه القيمة الاجتماعية الأولى ، ونتخلص من ذلك المرض الوبيل الذى يجعل التعليم بالنسبة للكثيرين مجرد سبيل إلى اكتساب ميزة اجتماعية معينة ويجعل الهدف الاسمى لبعض المتعلمين الوصول إلى وظائف مكتبية ، بصرف النظر عن قيمتها فى حركة المجتمع .. فقد أصبحت المسألة مجرد الحصول على دخل شهرى مستقر ، ومكانة اجتماعية مقبولة ولم تعد تمت إلى التنمية العقلية والفكرية بصلة .

وقد لا يعلم الكثيرون فى مصر أن من أهم ما طرأ على منطق التثقيف والتعليم فى العالم المعاصر هو ما اصطلح على تسميته بنظرية التعليم المستمر .. ففى هذا العصر الذى ينطلق فيه التقدم العلمي والفنى والتكنولوجى على نحو مذهل ، هذا العالم الذى كثيراً ما تصبح الآلة فيه قديمة متأخرة بمجرد الانتهاء

من صنعها لظهور ما هو أحدث منها . فى هذا العصر صار محتما على العناصر النشيطة والمنتجة فيه أن تكون فى حالة من التعليم المتواصل والتثقيف المستمر .. وبغير ذلك لا يلبث المتعلم أن يتخلف عن الجديد ، مهما كانت درجة الخبرة والثقافة التى حصل عليها من خلال دراسته .

وتحقيق هذه الغاية يستلزم بدوره عدة أمور منها :

الاستفادة بثروة المعلومات فى العالم . وجعلها دائماً فى متناول كل الراغبين عن طريق تحديث المكتبات العامة ومكتبات الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث ومراكز الاطلاع وتسهيل استيراد أحدث الكتب والمجلات والدوريات واعطائها الأولوية المناسبة لها .

ومنها حلقات الدراسة وبرامج التدريب المستمر على كافة المستويات من المديرين للإلمام بأحدث فنون الإدارة ، إلى المدرسين أنفسهم لتأهيلهم فى المساهمة فى تطوير المناهج وطرق التدريس إلى التدريب المهنى المستمر فى شتى فروع العمل لرفع الكفاءة الإنتاجية .

ومنها أيضاً استخدام وسائل التثقيف العامة فى تقديم برامج دراسية حرة فى الفروع المختلفة .

وفى هذه المجالات كلها لابد من استخدام كل وسائل العلم الحديث فى جمع المعلومات وتخزينها وتوزيعها .. وفى الارتقاء بمستوى ما يقدم للطالب فى المدرسة أو المعهد أو الجامعة . ويأتى فى قمة هذا كله ضرورة الاهتمام بمراكز البحث العلمى والتكنولوجى المتقدمة .

لقد قلنا أكثر من مرة أننا يجب أن ندخل عصر العلم والتكنولوجيا . وقد أثبتت قواتنا المسلحة أنها قادرة على ذلك وعلى مستوى باهر .. فليكن ما أحرزته فى هذا الشأن مثلا يحتذى به فى كل المجالات .. وإذا كنا نعيش فى فترة تعتمد أساسا على العلم والتكنولوجيا المستوردة فأنه من الواجب ألا نطمئن إلى العيش على ما ينتجه الغير فى هذا الصدد .

أن مصر تضم عددا لا يستهان به من الباحثين العالميين ومن مراكز البحث العلمى ونحن فى هذا المجال نحتل مركزا ممتازا بين الشعوب النامية .. وإننى لأعتبر الانفاق على البحث العلمى والتكنولوجيا بمثابة الاستثمار فى صناعة ثقيلة .. لأنه استثمار لا يساعد فقط على التنمية فى المستقبل القريب .. ولكنه يضمن استمرارها وتصاعد معدلاتها فى المدى الطويل .. ولكنه كأى استثمار يجب أن يرشد والترشيد يعنى أولا التنسيق بين مراكز البحث العلمى المختلفة والربط بينها فى استخدام وسائل البحث التى تتيحها امكانياتنا وهو يعنى ثانيا ربط نشاطها باحتياجات المجتمع لتأخذ من تلك الاحتياجات مادتها وليستفيد

ومن ناحية أخرى يجب أن يستهدف البحث العلمى والتكنولوجى لتطويع التكنولوجيا المستوردة للواقع المصرى .. وأن يكشف حلولا أصيلة لمشكلاتنا المحددة .. تماماً مثلما فعلت قواتنا المسلحة فى تطويع وتطوير السلاح وفى ابتكار أساليب مواجهة معركتنا بسماتها الخاصة . ثم يكون طموحنا بعد ذلك أن ندخل ميدان البحث العلمى والتكنولوجى كشركاء نأخذ ونعطى فلا نعيش عالة على من يبتكرون أو نخضع للشروط التى يفرضونها .

أننى لأتمنى فوق جهدنا المصرى الخاص فى هذا المجال .. أن تتم جهود عربية مشتركة يمكنها أن تعطى التقدم الذاتى فى هذا الميدان دفعة قوية .

٣

لقد عاش العالم عدة قرون كان العرب يملكون فيها ناصية العلم .. وكانت أوروبا تنقل عنهم .. وقد ظلت كتب المؤلفين العرب تترجم إلى اللاتينية وتدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر . ومعنى ذلك أن الإنسان العربى قادر على الإنتاج الأصيل إذا تهيأت له الظروف المواتية .

إن هذا كله يستهدف فى النهاية استعادة العقل المصرى لأمجاده القديمة . كما يستهدف تنمية قدرات الإنسان المصرى تنمية ثقافية وعلمية وفكرية واجتماعية ترفع من قيمة ما يمكن أن يقدمه لبلاده من عمل .. هذا على مستوى الدولة أو المجتمع .. أما على مستوى الفرد فتقع على كاهله مسئولية تثقيف نفسه بنفسه تثقيفا مستمرا لأنه لا يعقل أن تظل الدولة تلقنه المعرفة إلى الأبد وإن كان يتحتم عليها أن تيسر له وسائل المعرفة وسبلها من كتاب أو إذاعة صوتية أو مرئية أو سينما أو مسرح . فالثقافة مثل الماء والهواء . ملك للجميع ، ومن أرادها فلن يقف أمامه أى عائق اقتصادى أو اجتماعى أما عن خبرتى

الشخصية فى هذا المجال فكنت أحصل على الثقافة من أى سطر تقع عليه عيناى حتى ولوكان فى رواية أو قصة لمجرد التسلية .. من هنا كان اصرارى على أن آخر ستة أشهر قضيتها فى السجن تعد أعظم فترة فى حياتى حتى الآن .. ذلك لأنه سمح لنا فى تلك الفترة بالقراءة والاطلاع مما اتاح لى فرصة الارتفاع فوق اعتبارات المكان وقيود الزمان وتحولت بذلك الزنزانة ٥٤ فى سجن مصر (قره ميدان) إلى عالم رحب شاسع لا تحده أية أسوار .

لكن الشيء المؤسف حقيقة فى حياتنا أننا أصبحنا شعبا غير قارىء .. فالكتاب لا يلعب فى حياتنا اليومية الدور الذى يلعبه عند الشعوب المتحضرة الأخرى .. وعلى الرغم من انتشار المسرح والسينما والتليفزيون والإذاعة .. إلا أن الكتاب مازال سيد أدوات المعرفة .. فهو خير جليس فى هذا الزمان كما تعلمنا فى صبانا .. لكننا ننسى أو نرفض مجالسته لأننا نفضل عليه الثرثرة فى موضوعات لا يمكن أن تعود علينا بالنضوج العقلى والنمو الفكرى .. وبينما الشعوب الأخرى تتفنن فى كيفية استغلال الوقت خاصة وقت الفراغ .. نتفنن نحن فى كيفية قتله على الرغم من أن الوقت هو الحياة نفسها .

ولعل العلاج السريع لهذه الظاهرة يكمن فى اللجوء إلى وسائل الإعلام التى تعتمد على التسلية فى تقديم مادتها الثقافية مثل التليفزيون والإذاعة .. فإذا كنا نستثقل أن نقرأ كتابا

للأسف ، فمن السهل علينا أن نستمع إلى الإذاعة أو نشاهد التليفزيون . هنا يكمن الدور الحيوى لهذه الوسائل الاعلامية التى لا يدفع الجمهور فيها شيئاً سوى ثمن التيار الكهربائى .. وهذا يدعونا إلى الاكثار من المواد الثقافية التى تقدم للجمهور .. قد تكون المسألة ثقيلة عليه لأول وهلة بحكم عدم تعوده على الثقافة العميقة .. إلا أن الثقافة فى أساسها تربية .. وبمرور الوقت ستتحول إلى عادة يومية عند الأفراد بحيث يدفعهم هذا فى نهاية الأمر إلى أن ينهلوا من ينابيعها الأصيلة وعلى رأسها الكتاب .

تكمن خطورة الثقافة فى أنها ليست مجرد التزود بالمعرفة والمعلومات ولكنها الوسيلة الحقيقية لاكتشاف الذات . وقد مررت بهذه التجربة فى السجن .. كنت قبل دخوله غارقا فى دوامات الحياة حتى أذنى . ولم تتح لى الفرصة التى أتعرف فيها على ملامح ذاتى وكيانى إلى أن جاءت تجربة السجن بكل رهبتها ومعها الفرصة لقراءة واستيعاب كل ما تصل إليه يداى . قرأت فى شتى أنواع المعرفة بنهم لا يعرف لنفسه حدودا .. ومن خلال قراءاتى كنت أقرأ نفسى وذاتى .. منذ تلك الأيام التى وضعت فيها اللمسات الأخيرة لمنهجى الفكرى فى الحياة . فقد استطعت التوصل إلى ذلك التوازن الدقيق بين الروح والعقل والجسم .. فهذا التوازن لا يمكن أن يبلغه الإنسان إلا عندما يدرك ذاته .. وإدراك الذات لا يتأتى إلا بالتثقيف الشامل

العميق ، أما غير ذلك فسيظل الإنسان يأخذ الأمور بظواهرها . وبالتالى سيظل يتخبط فى دروب الحياة لا يعرف لخطوات أقدامه موقعا .. إن شر ما يصاب به إنسان ذو مثل عليا هو الانحطاط العقلى فالقراءة والاطلاع ألزم للفرد من الطعام فى هذا العالم الذى اتصل قاصية بدانية .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أنه من ايجابيات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . أنها حررت الثقافة من السيطرة الاستعمارية وأعادت صلة المثقف المصرى بتاريخه الحضارى الطويل وكشفت له عن أمته العربية وثقافتها الغنية وامكانياتها الواسعة ، وفتحت أمامه كل النوافذ على الثقافة العالمية بعد أن كان النفوذ الاستعمارى يحصره فى قنوات معينة .. كما حررت الثورة الثقافة من الطبقية بعد أن وسعت قاعدة التعليم وجعلت المدخل الوحيد إليه – أى إلى التعليم – هو القدرة الذهنية على التحصيل والدراسة ، وهكذا وصل أبناء الفلاحين والعمال إلى أعلى مراحل التعليم ولم تعد المعرفة احتكارا لأولى الثروة .. ولم تعد البلاد تحرم من كفاءات أبنائها لمجرد عجزهم عن تحمل مصاريف التعليم . شجعت الدولة التفوق والدراسة والبحث العلمى وهيأت السبل حتى فى المجالات المتقدمة ، وأفردت لذلك الجوائز وجعلت للعلم عيدا فى كل عام .. وقد حظى الكتاب والمسرح والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية بمختلف أشكال التشجيع وفى مقدمتها تمويل الأعمال الفنية الهامة وإنشاء معاهد الفنون

وتنظيم منح التفرغ للإنتاج الأدبى والفنى .

ويتحتم على ثقافتنا أن تكون مستمدة أصلا من تاريخ هذه الملايين .. من نضالها ومن واقعها ومن مصالحها ومَن حضارتها ومن أدبها ومن فنها ، ثم لكى تصبح ثقافة واعية متقدمة ومنطورة يتحتم أيضا أن تكون مرتبطة بثقافة ووعى البشر جميعا ... نحن نرفض المفهوم الضيق للتعليم والتثقيف وهو المفهوم الذى حرص على ترسيخه فى مصر ممثل البيداجوجيا الانجليزية دانلوب أيام الأحتلال البريطانى والذى جعل الهدف الأسمى للتعليم هو اخراج موظفين كتابيين للوظائف الحكومية التى تخدم الاستعمار بطبيعة الحال .. لذلك توارت الثقافة المصرية الأصيلة فى الظل بعض الوقت .

وقد يفهم الشباب أن المقصود بالثقافة هو التعليم فى المدارس والجامعات ! إن الفرق بين الثقافة والتعليم شاسع هائل .. فالانسان المثقف هو الذى يعرف الطريق إلى الحياة .. إلى الحرية والعدل والحق .. كما يعرف وسائل الانطلاق فى ذلك الطريق ، أما المتعلم فهو الذى يدرس لكى يحترف عملا يرتزق منه .

فالثقافة بشقيها الأصيل والمعاصر هى التى تحدد مقدار وعى الانسان بالمجتمع والكون حوله ، ومن ثم تلزمه بشق الطريق الخاص به نحو مستقبله الذى هو مستقبل المجتمع فى نفس الوقت .. فهذا المستقبل يتحدد بالحدود التى تحقق مصالحه

وحرياته وآماله بل وحقوق ومصالح وآمال الجماهير .. والثقافة سلوك كما هى معرفة أيضا .. وهذا يذكرنا بفيلسوفنا العظيم ابن مسكويه الذى كان الكتاب بالنسبة له « ينبوع الثقافة » و« المعلم » و« الجامعة » التى تربى فيها .. يقول فى احدى قصائده مشيدا بقيمة الكتاب :

فإن تمنيت عيشى الدهر أجمعه وإن تعاين ماولى من الحقب
فأنظر إلى سير القوم الذين مضوا والحظ كتابتهم من باطن الكتب

٤

لا شك ان كل الفضائل الإنسانية والمثل الأصيلة تنبع من الثقافة الحقيقية ، والأفق الواسع والنظرة الشاملة والبصيرة النافذة ، إن المسألة فى رأيى لا تخرج عن نطاق الثقافة . فالرأى الصادق نتاج طبيعى لثقافة صاحبه أو لا تجاهه نحو الثقافة إذا كان قد بدأ يؤمن بها .

وإلا لكان أصحاب الآراء غير الصادقة جبناء رعاديد ترتعش أطرافهم فزعا من الصدق أبداً !! إنهم – أعنى أصحاب الآراء الخاطئة – ليسوا سوى أناس مساكين لا يؤمنون بالثقافة فيتركون عقولهم فريسة لذلك العدو البشع ، الجهل .. ان الذى يجب أن نخاف منه هو سيطرة الجهل وليس تيار الثقافة الوافدة . فالتمسك بالأصالة لا يعنى سد باب التجديد ، بل إن الحضارة العربية القديمة رفعت كثيرا من شأن المجددين الرواد .. ومن هنا تؤكد « ورقة أكتوبر » .

ان « حقنا فى التصرف فى أمور دنيانا وظروف أيامنا . ليس أقل من حق أسلاف عظام لنا جددوا وابتكروا وتصرفوا فى

أمور دنياهم وأحوال أيامهم . إن التجديد الجذرى ليس بالضرورة منقطع الجذور عن التراث القومى والحضارى والروحى للشعب .

ونحن لا نقول بهذا عن رغبة فى التميز أو الاستعلاء ولكن لأننا نؤمن من استقراء التاريخ أن المناطق ذات التراث الحضارى العميق لا يمكن بحكم الطبيعة أن تنطمس هويتها تحت أى ضغط . ونؤمن بأن انطلاقنا من هذه الجذور يحمى بالنسبة لنا وبالنسبة لغيرنا ذلك التنوع من الحضارات والشخصيات الذى يثرى بتعدده العالم ويغنى تجاربه .

ولست هنا أعرض مفاهيم جديدة ، ولكننى فقط أذكر بمعان قد استقرت فى ضمير هذا الشعب ، وفى أعماق وجدانه حيث لا يمكن أن يزعزها شىء ، وبأنه من هذه المعانى قولى بأن الانسان المصرى بعراقته وأصالته هو الضمان لنا فى أن نقطع هذه الرحلة نحو المستقبل دون أن نفقد من هويتنا شيئا .

إن من أبرز آثار الثورة التكنولوجية فى عالم اليوم .. ذلك التقدم الهائل فى وسائل نقل الأفكار والمعلومات والتيارات وأنماط السلوك المختلفة عبر الحدود القومية لكل المجتمعات الانسانية على السواء ، وبالتالى سقطت الحواجز القديمة العازلة بين بيئة وبيئة وبين مجتمع ومجتمع . وفى وجه هذا التحول الثورى المتزايد لايمكن أن تكون حصانتنا أزاء هذا الانفتاح والأتصال إلا من داخلنا ... ولا يكون الحفاظ على هويتنا بالانكماش والجمود والضعف ولكن بدرجة التقدم التى نحرزها بالأسلوب السليم الذى يستمد حيويته

من قدرتنا على التجديد ، وثباته من تمسكنا بالأصالة .. وبهذا المعنى فإن عملنا من أجل أن نبنى فى بلادنا مجتمعا عصريا ودولة حديثة لا يعنى النقل والتقليد ..

إننا قادرون على أن نصنع بأنفسنا ولأنفسنا حضارة عصرية ذات طابع مصرى وعربى أصيل ... نحن نرفض أن تكون الأصالة نظرة إلى الوراء .. نقدس الماضى لأنه ماض ونرفض التجديد . فليس كل ما كان فى الماضى مشرقا ولكن فيه بعض عناصر التخلف . ونحن نرفض من جهة أخرى أن نمسخ شخصيتنا القومية بأسم محاكاة المادية أو السلوكية لمجتمعات أخرى .

إن التحدى الحقيقى المطروح أمام الشعوب العريقة التى تواجه مشكلة التقدم الحضارى هو بالدقة كيف نجدد حضارتها فلا نلفظ الماضى بأسم الحديث ولا ترفض الحديث باسم الماضى وإنما نأخذ بأسباب التجديد دون أن نفقد الأصالة . إن الدولة الحديثة والمجتمع العصرى ليس فى مظاهرهما المادية فحسب ، ولا يتحقق بناؤهما بمجرد اقتناء أحدث السلع والمنتجات .

إن العصرية هى أن نعرف أولا الترتيب السليم لأولوياتنا فى ماذا يلزمنا من هذه الأدوات قبل غيره .. ثم هى فى أن نوجد المؤسسات والنظم والعلاقات التى تحول هذه الأدوات فى الأيدى العربية من أدوات صماء مستهلكة إلى أدوات خلاقة منتجة .. ثم هى بعد ذلك فى أن نخلق البيئة المناسبة ودرجة التطور اللازمة التى تجعلنا قادرين على الابتكار والابداع وبالتالى على المساهمة الحقة فى الحضارة الانسانية ..

٥

هذا هو الدور الذى يتحتم على العقل المصرى أن يقوم به .. ولن يتأتى له القيام به إلا بالتعليم المتواصل والتثقيف المستمر حتى يضيف الانسان المصرى إلى كيانه ذلك التوازن البديع بين الروح والعقل والجسم ... وإذا كنا تعرضنا فى هذا الكتاب إلى الايمان كغذاء للروح وإلى التثقيف كغذاء للعقل .. فقد تبقى لدينا الدور الذى يلعبه الجسم فى حياة الانسان .. وهو دور لا يقل فى أهميته عن دور كل من الروح والعقل ... فغذاء الجسم السليم المتوازن يتمثل فى الطعام المعتدل والرياضة البدنية .

والإنسان الذى يتناول كميات معتدلة من غذاء كامل تهضمه معدته فى يسر ويتمثله جسمه بسهولة غالبا ما يشعر بالانتعاش والحيوية والأحساس بدوره مما يجعله ينظر إلى الحياة فى تفاؤل . ولكن إذا قل الطعام عن حاجته اليومية أو زاد شعر بتغيرات فى احساساته العصبية قد لا يفطن إلى سببها ، فيصبح سريع التأثر لأقل المؤثرات الخارجية . أما الشىء الذى كان عادة لا يسبب

له سوى احساس طفيف بالضيق يصبح سبب قلق عميق ، والاجهاد العصبى ينتج دائما عن القلق .

أما عن الرياضة البدنية فالجميع يعرفون فوائدها الجمة ، ولكن قليلين جدا هم الذين يضعون هذه الحقيقة الحيوية الخطيرة موضع التنفيذ . ولذلك فنحن من الشعوب القليلة التى تزداد فيها نسبة الرجال ذوى الكروش المترهلة ، والنساء ذوات البدانة المرهقة .. على الرغم من أن الرياضة البدنية من الأنشطة اليومية التى لا تكلف الانسان أى مبلغ من المال .. فعندما أتكلم عن الرياضة لا أقصد التنس مثلا أو غيره من الرياضات المكلفة ، ولكننى أقصد أكثر أنواع الرياضة بساطة وفائدة فى الوقت نفسه ألا وهى المشى ... اننى أمارسه يوميا بحيث اسير مسافة لاتقل عن أربعة كيلو مترات . وعندما أنتهى من هذه الممارسة اليومية أشعر بمنتهى الحيوية والانطلاق بل والسعادة . وهذه ليست أحاسيس مجردة لا تخرج عن نطاق علم النفس بل لها أساس عضوى راسخ وهو أن الرياضة والمشى على رأس القائمة — تقوم بتغيير كيمياء الدم فى الجسم فيشعر الانسان بالتفاؤل والاستبشار مع بداية اليوم .. ولا يمكن للأحاسيس السوداء أن تنتابه أو تهاجمه .. وكما قلت فى بداية هذا الفصل إننى مارست رياضتى المفضلة حتى فى صباح السبت ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو اليوم الذى تحدد لتغيير مصير مصر كلها لأجيال عديدة قادمة .

إن الجسم الخامل أشبه بآلة معطلة ، والآلة إذا تركت بغير عمل تراكم عليها الصدأ وتآكلت شيئاً فشيئاً .. فى حين أنها لو استعملت بانتظام لعمرت وقتا طويلا .. إن الخمول يتسبب فى فسادها وعطبها .. والآلة البشرية كالآلة الميكانيكية لأنها خلقت للنشاط والعمل والإنتاج وهذا هو الهدف من وجودها أصلا .. لذلك ينبغى على جمع أجهزة الجسم الدقيقة المعقدة من عضلات وغدد وأعصاب أن تعمل بانتظام كى تظل سليمة أطول مدة ممكنة . وعندما نقول إنها إذا لم تعمل تراكم عليها الصدأ فهذا ليس من باب المجاز أو التشبية أو المبالغة .. فالمقصود بالصدأ هنا السموم التى تتراكم لكى تؤثر فى وظائف الجسم .والشخص الخامل يتحدى قوانين الطبيعة وهو يدفع ثمن هذا التحدى من أعصابه .. كما أن الخمول الذهنى ليس أقل ضررا من الخمول البدنى ، فالعقل الخامل يغدو تربة خصبة للقلق والخوف وعدم القناعة والرضا ، وهذه بدورها تؤثر على أجهزة الجسم بدون استثناء .

وعندما أتكلم عن التوازن الدقيق بين الروخ والعقل والجسم لا أقصد أن هذه العناصر تسير متوازية أو منفصلة عن بعضها البعض . فهذا الفصل المؤقت فقط من أجل التفسير والتحليل ، ذلك لأنها متداخلة تماماً وبالتالى لا يمكن فصل غذاء أى منها عن غذاء الآخر .. أى انه لا يمكن الفصل بين الإيمان (غذاء الروح) .. والتثقيف (غذاء العقل) ..

والرياضة (غذاء الجسم) من هنا كان الإنسان فى حاجة إلى ممارسة مستمرة لكى يحصل على هذا التوازن الدقيق بينها .. ومتى حصل على هذا التوازن أصبح جزءا حيويا من شخصيته وعلامة مميزة لسلوكه وترسب فى منطقة اللاوعى عنده بحيث يسلك به دون أن يقصد إليه قصدا .. ونحن فى اصرارنا على بناء الإنسان المصرى نصر بالتالى على ضرورة هذا التوازن لأنه الطريق الوحيد المؤدى إلى الثقة بالنفس والتفاؤل بالمستقبل .. والتحرر من الخوف الذى يدمر الإنسان من الداخل ولا يتركه إلا بعد أن يغدو هيكلا أجوف .

الفصل السادس

لو كان الخوف رجلاً

١

أحب أن يعرف الناس أننى حينما اتحدث إليهم عن قيمة من القيم فأننى لا أتكلم اعتمادا على قراءاتى واطلاعي فى الكتب فقط . بل أن معظم هذه القيم مستفادة أساساً من خبرتى الشخصية وتجاربى التى مررت بها فى حياتهى الزاخرة بالصراعات والتقلبات .

ما أريده حقا أن أقدم هذه الخبرات والتجارب للناس حتى تتحول إلى علامات مضيئة على طريقنا نحو المستقبل بحيث لا يضيع وقتنا أو جهدنا عندما ندخل فى طرق مسدودة ومتاهات جانبية .. فالوطن فى أشد الحاجة إلى هذا الوقت وهذا الجهد حتى يلحق بركاب العصر الذى يسير الآن بسرعة الصواريخ وسفن الفضاء .. لم يعد هناك مجال لتكرار الصراعات والتقلبات والسلبيات والأخطاء فكلها عوامل كفيلة بتحويل عنصر الزمن ضدنا .. والزمن لا يرحم المتقاعسين ولن يترك لهم أى مكان تحت الشمس .

من هذه السلبيات التى اعترضت حياتى فى مرحلة الشباب المبكر وتخلصت منها بعد ذلك : الخوف .

ربما بدأ الخوف فى حياتى من القرية بحكم التقاليد المتوارثة والتى لا ترى إلا العقاب الصارم نتيجة طبيعية لأى خطأ يرتكبه الإنسان وإذا لم يقع عليه العقاب فى هذه الدنيا فلا مناص من تطبيقه عليه فى الآخرة . وقد ساعدت التربية الدينية التقليدية فى القرية على بث هذا الرعب فى نفوس الأطفال .. ليس هناك سوى الجحيم فى انتظار من يرتكب أى خطأ .. وقد أدى هذا النوع من التعليم إلى ضياع أمل الكثيرين فى التوبة لأنه مادام خطأ واحد يفقد الأمل تماماً فى اكتساب رضا الله عز وجل فلا حرج إذن فى السير على طريق الخطايا إلى نهايته . وكان عريف الكتاب يصر على ذكر وترديد آيات القرآن التى تتوعد الكافرين بالعذاب الاليم ولا يذكر الآيات الكريمة التى تؤكد رحمة الله الواسعة التى يمكن أن تشمل كل المخطئين مهما فعلوا ماداموا قد رجعوا وتابوا توبة صادقة ؟ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » على سبيل المثال لا الحصر .

وكان استعدادنا للخوف قد بدأ منذ طفولتنا المبكرة عندما اعتادوا على تخويفنا من الجن والعفاريت والأرواح الشريرة حتى لا نخرج عن طاعة الكبار ، وعندما التحقنا بالكتاب كان يطاردنا الخوف من الوقوع فى الخطيئة والعقاب الأليم فى

الجحيم . وبالطبع ترسبت كل هذه العوامل فى نفسى حين نزحت أسرتى إلى القاهرة عام ١٩٢٤ وكنت فى الخامسة من عمرى .. وبمرور الأيام لزدادت الحساسيات فى نفسى وأثرت على معاملتى للآخرين .. ولعل العامل الأساسى الذى لم يترك لهذه الحساسيات أن تصل إلى نهاية المدى داخل نفسيتى . تلك القيم الأخلاقية التى رسختها القرية فى نفسى وأولها الانتماء إلى الأرض والتآلف والتعاون والتراحم والإيمان بأن الله موجود فى كل الوجود لكى يرعى الإنسان حيثما وجد .

لكن هذه المخاوف تعد عادية لأنها لم تترك أغواراً غائرة فى نفسى . أقول هذا لأننى مررت بتجربة الخوف فى شهر يناير عام ١٩٤٦ لدرجة أنها وصلت معى إلى مستوى العقدة النفسية التى تترك بصماتها على سلوك الإنسان دون أن يدرى . وظل الحال بى هكذا إلى أن دخلت السجن واكتشفت ذاتى وبالتالى استطعت بلوغ الأسباب الكامنة وراء هذه العقدة مما جعلها تنحل أخيرا .. أى أننى قمت لنفسى بمهمة المحلل النفسانى الذى يظل يفتش عن العقدة حتى يصل إلى كنهها .

فى ١١ يناير سنة ١٩٤٦ على وجه التحديد كان يوم وصول الملك عبد العزيز عاهل السعودية لزيارة الملك فاروق . قبل ذلك بخمسة أيام أى فى السادس من يناير اطلق الرصاص على عميل بريطانيا الأول فى مصر أمين عثمان الذى كان وزيرا للمالية فى وزارة الوفد وأعلن على الملأ أن بريطانيا تزوجت

مصر زواجا كاثوليكيا لا يقبل الطلاق أو حتى الانفصال ، وأنه حتى لو تركتنا بريطانيا لكان علينا أن نلهث فى أعقابها .

قتل أمين عثمان فى نفس الليلة وقبض على الفاعل بعدها بساعات . وحدث أننى كنت على صلة وثيقة بهؤلاء الذين دبروا ونفذوا مقتل أمين عثمان . وكان من الطبيعى أن أتوقع القبض علىّ أنا الآخر بعد أن وقع الآخرون فى قبضة الشرطة فى الأيام التالية للحادث .

ظللت من يوم ٦ إلى يوم ١١ يناير وأنا أتوقع القبض علىّ .. ومازلت أذكر تماماً أن هذه كانت أسوأ فترة يمكن للإنسان أن يمر بها لأنه دائماً يتوقع الأسوأ منها ، تماماً مثلما يقول المثل المصرى « وقوع البلا ولا انتظاره » ولعل من المفيد لشعبى أن أحكى لهم تفاصيل ذلك اليوم ١١ يناير حتى يدركوا إلى أى مدى يمكن للخوف أن يسحق الإنسان .

فى ذلك اليوم خرج الشعب المصرى لاستقبال الملك عبد العزيز آل سعود ، وخرجت مع المستقبلين فى ميدان الأوبرا على سبيل الهروب من الأفكار السوداء التى تساورنى خاصة أن الاتهام الذى وجه ضدى فى هذه القضية أننى قمت بتدريب المتهمين على اطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية .. وبالطبع كانت احتياطات الأمن المحيطة بموكب الملك عبد العزيز على أشدها إذ أنه لم يمر سوى خمسة أيام على مقتل أمين عثمان .. صاحب رجال الأمن الموكب مركزين أنظارهم

فى كل اتجاه .. وأحب هنا أن استطرد وأذكر لأولادنا أن قائد البوليس فى تلك الأيام كان لايزال بريطانياً - بل أن الكونستبلات الذين كانوا ينطلقون فى الشوارع بموتسكلاتهم كانوا ينتمون إلى نفس الجنسية ، وهم الذين قاموا بحراسة موكب الملك عبد العزيز .. طبعا لم يحضر أحد من أولادنا هذا العهد الذى كانت فيه مصر ذنبا من الأذناب التى تسير فى فلك الامبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس .

انتهى موكب الملك عبد العزيز وعاد القلق لينهشنى من الداخل . لكننى لم أجد شيئاً أفعله سوى العودة إلى البيت مع مغيب الشمس إذ أن موكب الملك عبد العزيز كان بعد الظهر . تناولت عشائى ونمت حتى أدفن أفكار القلق والخوف فى الوسادة أو تحت الغطاء .

وعند الفجر وفى عنفوان البرد جاء زوار الفجر .

كنت مستغرقا فى النوم والدفء .. وفى الثالثة صباحا فوجئت بنور الغرفة ساطعا فى عينى بعد أن كانت الغرفة غارقة فى الظلام . طار النوم من جفونى وعاد القلق والاضطراب والخوف فى موجة عارمة لم أعرف لها دفعا .

حول السرير وقف ما لا يقل عن عشرين رجلا من البوليس السياسى عرفت منهم محمد إبراهيم إمام وضباطه الذين كانت لى معهم خبرة سابقة منذ أن طردت من الجيش وأودعت سجن الأجانب .

كان منظر المخبرين المحيطين بالسرير كالكابوس الذى لم أستطع الاستيقاظ منه .

هذا المنظر مرعب وحده فى وضح النهار . فما بالك إذا وقعت عيناك عليه وأنت مستقيظ من النوم فى زمهرير الشتاء وضوء الفجر لم يبرز فى الأفق بعد !! طبعا لم يعبأ أحد من زوار الفجر بأحاسيس هذا الإنسان الذى أحاطوه من كل جانب ، بل أخذونى من البيت إلى سجن الأجانب ومن هناك تم ترحيلى إلى الزنزانة ٥٤ فى سجن قرة ميدان (أو سجن مصر المركزى) .

لم تمر تلك الليلة على خير .. اكتشفت فى السجن أننى أصبت بهزة عصبية فى تكوينى النفسى ، ولعل هذا من الأسباب التى جعلتنى بعد ثورة التصحيح أطلب من ممدوح سالم بصفته وزيرا للداخلية فى ذلك الوقت أن تمتنع أجهزته عن القبض على أى مواطن فى منتصف الليل أو عند مطلع الفجر .. كانت تعليماتى أن يتم القبض على الشخص المطلوب القبض عليه فى أثناء النهار .

ومادامت هناك سيادة للقانون فالنيابة هى الجهة المسئولة عن القبض عليه وليست أجهزة الشرطة التى لا تملك سوى التنفيذ فقط .

٢

بعد أسبوع واحد فى السجن لابد أن ينكشف الإنسان على ذاته كما ينكشف أيضاً للآخرين .

ساعدنى على هذا الكشف قراءاتى المتواصلة سواء فى المعتقل أو فى السجن .. وقد عرفت من قراءاتى فيما بعد دور تجربة السجن فى اكتشاف الإنسان لذاته ولكن بعد أن كنت قد اكتشفتها عمليا . فهى تجربة تعد من اهتمامات علم النفس الحديث .

فى خارج السجن يغرق الإنسان حتى اذنيه فى دوامات الحياة اليومية فلا يملك وقتا للتأمل والتفكير المتأنى حتى يكتشف حقيقة ذاته .. وكثيرون يعيشون ويموتون من غير أن يعلموا لماذا عاشوا وماذا حققوا قبل موتهم .

أما عندما يلقى بالإنسان فى السجن بين جدران الزنزانة الأربع فلا يجد أمامه إلا أن يختار بين التأمل والتفكير والتعمق فى ذاته وبين الانهيار أو الجنون أو الانتحار . وكان اصرارى على الاختيار الأول بمثابة الطريق الذى أدى إلى اكتشاف ذاتى .

قضيت فى السجن ٣١ شهرا أى سنتين ونصف سنة وشهراً .. ولم أتخلص من هذه الهزة النفسية إلا بعد انقضاء سنة ونصف سنة ، شعرت فيها أننى غير متوازن نفسيا وعصبيا وأعصابى يغلب عليها الاجهاد ، ولولا الصلابة الداخلية التى اكتسبتها من القرية فى طفولتى المبكرة وصباى لكان من الممكن أن أعجز عن تحمل الصدمة .

مع هذه الصلابة والقراءة والتأمل توصلت إلى تحليل العوامل التى أدت إلى هذه الهزة النفسية وطبقا لمنهج التحليل النفسى انحلت العقدة فور ادراك كنهها .

صحيح أننى نشأت فى القرية على ألا أخاف سوى الله عز وجل خاصة أن الخوف عند الفلاحين عيب لا يصح أن يلصق بشخصية الرجل .

ولكن الإنسان هو الإنسان بكل قوته وضعفه ومنذ ذلك التاريخ الذى علمنى درسا لن أنساه وأنا أرفض رفضا باتا أن أسبب خوفا لأحد لأن الخوف عامل أساسى يفقد الإنسان حقه وكيانه فى الحياة كإنسان .. وكلنا نعرف الحكمة التى قالها على بن أبى طالب رضى الله عنه « لو كان الفقر رجلا لقتلته » فهو يقصد بهذا مدى الاذلال الذى يعانى منه الإنسان من جراء

الفقر ، لكننى أقول بعد على بن أبى طالب كرم الله وجهه « لو كان الخوف رجلا لقتلته » إذ أننى عانيت منه فوق ما يحتمل البشر ، ولا أحب لغيرى من الناس أن يمروا بهذه التجربة المريرة التى يمكن أن تدمر الإنسان من الداخل لو لم يمتلك الصلابة الداخلية لتحمل نتائجها وآثارها .



إن مسئوليتى المباشرة عن أبناء هذا الوطن أن اجنبهم ما عانيت منه فى صباى وشبابى .

من هنا كان من الطبيعى أن أبذل جهدى فى تطبيق مبدأ التامين الاجتماعى ونشر مظلته على الجميع ، لم يكن لأحد فى أيامى أن يسمع عن هذا ، فضلا عن تطبيقه .

فى تلك الأيام كانت التعريفة أو الخمسة مليمات عملة صعبة بالنسبة إلى خاصة عام ١٩٤٦ قبل القبض علىّ .

إن الاحساس بفقدان الأمان والاستقرار من العوامل التى تجعل من الإنسان ريشة فى مهب الرياح ، وإذا كنت قد تعرضت لهذه التجربة فى عنفوان شبابى ، وتركت فى نفسى آثارها السلبية بل والمدمرة ، فكيف يكون الحال بالنسبة للآخرين لو مروا بهذه التجرة فى فترات ضعف وانهيار فى حياتهم ، وهى فترات كثيرا ماتنتاب الناس بفعل ضغوط الحياة المعاصرة بكل تعقيداتها وصراعاتها .

إن الخوف لا يورث السلبية فقط بل ينتج عنه العديد من الأمراض النفسية . والمجتمع الذى يسيطر عليه الخوف لابد أن يكون مجتمعا سلبيا مليئا بالأمراض والعقد والرواسب التى تمنع الإنسان من الانطلاق فى الاتجاه الصحيح الذى يؤدى به إلى مستقبل مشرق لوطنه .

إن معركة البناء الداخلى لا يمكن أن تتم والخوف يشل انطلاقة الشعب ، ذلك لانها معركة لا تقل فى ضراوتها عن معركة العبور والتحرير .. ونجاح هذه المعركة رهن بتحقيق الاستقرار .. ومن المهم جدا فى تقديرى – ونحن بصدد تحديد مفهوم الإنسان المصرى والطريق الذى يتحتم عليه أن يشقه – أن أسجل أن الانتصار الحقيقى فى أية معركة أو ثورة هو حين تتحول إلى نظام واستقرار ، أى عندما تنتقل من مرحلة الشرعية الثورية إلى مجال الشرعية الدستورية .

إن من طبيعية الثورات وهى تمارس عملية تغيير حادة وضرورية فى المجتمع أن تقترن بالكثير من الإجراءات الاستثنائية التى لا مفر منها والتى تؤثر على إحساس المواطنين بالأمن والأمان ، ذلك أن الثورة حدث لا يقع كل يوم ولا كل جيل ، إنه حدث استثنائى يصبح حتميا حين تتوافر أسبابه وتتراكم دوافعه وتسد كل وسائل التغيير الأخرى فى وجه الجماهير ، وهو بالتالى حدث بتعامل مع مختلف المصالح والآراء والخلفيات والارتباطات ويتم عبر غبار كثيف حيث يدور الهدم والبناء والتنقيب والاصلاح .

لكن الثورة مهما حققت من نجاحات ، فإن النجاح الأخير لها هو وصولها إلى تحقيق أهدافها . هو أن ينقشع الغبار عن صورة البناء الجديد .. هو حين يشعر الشعب أن مؤسساتها قد اتضحت معالمها ، وأن قوانينها العامة قد تبلورت ، وأن مبادئها الأساسية صارت جزءا من ضمير الشعب وأن العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة قد أخذت طريقها إلى الاستقرار .

بهذا تصل الثورة إلى بر الأمان ، وتصبح نظاما للحياة ومجموعة سائدة منْ القيم والمبادىء تستمد استقرارها من هندستها الداخلية وتناسقها الذاتى واتساعها لآمال الجماهير وحركتها ، وليس من إجراءات استثنائية تحميها ، ذلك لأن الاحساس بالأمن ينتفى وجوده مع استمرار هذا النوع من الإجراءات .

٤

ليس معنى ذلك أنه قد تم حل مشاكل الجماهير والوفاء بكل متطلباتها ، فإن متطلبات كل مجتمع ومشاكله تتطور من يوم ليوم إلى غير ما حد وتحتاج إلى نشاط مستمر لمواجهتها .. ولكن معناه أننا قد عرفنا معالم الطريق ، وارسينا المنطلقات التى منها نتحرك لمواجهة هذه المشاكل والمتطلبات .

وليس معنى ذلك أيضاً أننا وضعنا إطارات جامدة غير قابلة للتطور – إن هذا ضد قوانين الحياة وسوف يظل لكل منا فكره ازاء الظروف المتغيرة ، واجتهاده فيها ولكن النقاش والتفاعل والوصول إلى القرارات صارت له قنواته المعروفة المستقرة .. وحتى تغيير القوانين صارت له وسائله الدستورية المحددة كما يحدث فى كل المجتمعات .

هنا أقول أيضاً أن ثورة التصحيح كان أساسها ثورة ضد الخوف ، ثورة تستمد ينابيعها من هذا الاحساس بوصول ثورة ٢٣ يوليو إلى مرحلة النظام والاستقرار .

ولذلك كان جوهرها : تراجع الإجراءات الاستثنائية بشتى صورها ، واستقرار القوانين والنظم والمؤسسات والعلاقات فى إطارات واضحة المعالم معروفة مسبقا للمواطن ، يمارس من خلالها نشاطاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية من أجل تحقيق ذاته وتطوير حياته باستمرار .

ولعل أكبر ماشوه الانجازات التاريخية الرائعة لثورة ٢٣ يوليو تلك السحابة القاتمة التى انتشرت فوقها نتيجة لفقدان سيادة القانون ولقصور الديمقراطية السياسية .

وإذا كانت الثورة قد أنجزت الكثير فى مجال الحرية الاجتماعية ، فإننا بكل أمانة لابد أن نسلم أن جانب الحرية السياسية لم يتحقق على الوجه الذى يريده الشعب، بل لقد فرضت الأجهزة ومراكز القوى وصايتها على الجماهير وتعددت القيود والإجراءات وشاع الخوف والقلق بين المواطنين .. بل وصل الأمر إلى حد صرف إجراءات التحول الاجتماعى عن هدفها الإنسانى الأصيل واستغلالها لإرضاء أحقاد شخصية أو مصالح مجموعات معينة ، وبدعوى الدفاع عن الاشتراكية تارة وعن أمن الدولة تارة أخرى ، أغلقت كثيراً من الأبواب وسدت مسالك كان يجب أن تفتح أمام العمل الوطنى . إن من حق كل مواطن أن يأمن على نفسه وعلى رأيه وعلى عمله وعلى كسبه المشروع .

إن الأصل فى كل مواطن افتراض أمانته ما لم يثبت القضاء تطبيقا للقانون-أنه اخطأ فى حق غيره أو فى حق المجتمع .

إن شعبنا بالغ رشيد لا يحتاج لوصاية أحد ، ومن هنا كان عملى الدؤوب على تصفية مراكز القوى وعلى تحقيق سيادة القانون وإقامة دولة المؤسسات ، وتأمين المواطن على يومه وغده . إننا نقدم فى جرأة على تطهير المجتمع من الخوف ، وعلى تصفية القيود على الحرية من واقع الثقة بالجماهير وبوعيها الوطنى الممتاز ، نريد أن نخلص من كل المظاهر التى تعبر عن الريبة فى المواطن أو تنال من إنسانيته أو كرامته أو التى تجعل مصر تنغلق على نفسها على خلاف طبيعتها .

إن من حق شبابنا بالذات أن يدرك هذا التقييم الموضوعى للتجربة ليعرف بالدقة ماذا حقق جيلنا . وماذا كان مقدار جهده ، وما تعرض له العمل الوطنى من نواقص وسلبيات ليتخذ عن اقتناع مكانه الطليعى فى حركة العمل الوطنى ، بدل أن تمزقه التيارات التى تحاول أن تنكر التجربة جملة وتفصيلا .

ومادام الخوف لم يعد له مكان بيننا . فلم تعد هناك ذريعة لأحد لكى يتقاعس عن العمل الوطنى خاصة فى مجال معركة البناء الداخلى .

٥

وعندما أتكلم عن الخوف يجب أن يعلم شبابنا أننى أتكلم عن الخوف المرضى . لأن الخوف من أهم الانفعالات الأولية التى منحها الله للإنسان لكى يحافظ بها على حياته ، أما الخوف المرضى فهو خوف شاذ يرتبط فى ذهن الفرد بالخبرات القاسية التى مرت بها حياته ، ونسى سببها ولم يعد يذكر منها إلا الصورة الملازمة لها . وغالبا ما يتسبب الخوف المرضى فى عدم قيام العقل بوظائفه العليا على وجهها الصحيح فيؤدى إلى شرود البال وتشتت الانتباه وخطأ التفكير .

أما الخوف الطبيعى فلا يعنى سوى إدراك الإنسان لما فى الموقف الراهن من خطورة واتخاذ الاستجابة الملائمة له . فمن شأنه أن ينشط قوى الفرد الجسمانية والعقلية ويجعله أكثر قدرة على مجابهة الموقف والسيطرة عليه . ولذا فالخوف الطبيعى بدلا من أن يكون عدوا للجنس البشرى يصبح وسيلة لبقائه .

أما الخوف الذى يهدد كيان الفرد ويشل قواه فهو خوف غير طبيعى يرسب فى كيان الإنسان الشعور بالنقص . فالخوف والشعور بالنقص مترادفان من الناحية العلمية لأن الشعور بالنقص عادة ما يكون مصحوبا بالخوف كما أن الخوف يصحبه أيضاً شعور بالنقص يكون نتيجة للاحساس العميق بالقمع أو عدم المواءمة .

ومن العبث أن ننصح الشخص الذى تسيطر عليه عقدة الخوف الدفينة أن يلتزم إرادته أو أن يسير وفق سلسلة من الارشادات العقلية كي ينجح فى حياته ، ذلك أن الاحساس الأول هو أن نتخلص أولا وقبل كل شىء من هذه العقد الكامنة فى أعماق اللاشعور ، فإن تم لنا ذلك أمكن أن تؤتى هذه الارشادات العقلية ثمارها . أما إذا دخلت هذه الارشادات فى صراع مستمر مع عقد الخوف الدفينة ، كانت النتيجة توترا أو ضغطا وتعبا واكتئابا .

إن التربية السليمة الصحيحة فى الطفولة والصبا المبكر قلما تنتج لدى الفرد اتجاها ضد المجتمع .. من هنا يجب تحليل خبرات تلك المرحلة المبكرة من العمر ومعرفة هذه الخبرات التى أدت إلى تكوين الاتجاهات المناهضة للمجتمع والشعور بالنقص .. فإن تم ذلك بالتحليل الذاتى أو بمساعدة الغير وجب القيام بعملية إعادة تربية الشخصية بأكملها وتدريبها على الثقة بالنفس واحترام الذات والاعتماد عليها .. ويمكن بالجهد المتواصل

والصبر والفهم استئصال الأساليب القديمة الخاطئة فى التفكير والاحساس ، وغرس طرق إيجابية جديدة .. وتعرف هذه العملية بأسلوب معرفة الذات واحترامها والسيطرة عليها .

أما إذا كان مصدر الخوف هو نقص الخبرة أو الجهل فيجب أن نعلم أن مثل هذه المواقف إنما تحل بنجاح عن طريق العمل والعمل وحده .. قد ينطوى العمل أحياناً على احتمال الفشل إلا أنه ليس ثمة وسيلة أخرى لاكتساب الخبرة والشجاعة والقدرة على السيطرة وعلى الموقف بغير العمل .. أما الهروب من القيام بخبرة ما ،لأن الوهم يصور لنا الفشل والارتباك فهذا معناه استسلام الإرادة للخيال الواهم الذى يستطيع العقل المنظم المستنير أن يسيطر عليه .. فمثلا عندما كنا نعد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عملنا تقدير موقف طبقا للعلوم العسكرية فوجدنا أنه يوجد ٨٥ ألف عسكرى بريطانى فى قاعدة القناة .. أى أن الموقف فى غير صالحنا إذا وضعنا فى اعتبارنا العوامل غير المنظورة التى قد تنتج عن تحريك هذه القوة البريطانية ضدنا عند قيام الثورة .

معنى هذا أننا لو ركزنا كل تخطيطنا على هذا الاحتمال المتوقع فإننا لن نفعل شيئاً على الاطلاق وبالتالى لن تقوم الثورة ، لكننا قررنا القيام بها مع وضع هذا الاعتبار فى أذهاننا بحيث لو تحركت القاعدة البريطانية ضدنا فسننتقل بالثورة إلى مرحلة الحرب الشعبية ، خاصة أن الملك فاروق كان قد بلغ

قمة الفساد .. واهترأ النظام السياسى والحزبى تماماً ، وأصبح الشعب على أهبة الاستعداد لكى يساند أية قوة جديدة تخلصه من هذا الانهيار الوشيك .. وكانت الحكومة البريطانية عاقلة بما فيه الكفاية ، وأدركت هذه الحقائق بحيث لم تتصدر للثورة على أمل أن تحتويها فيما بعد .

٦

ينطبق نفس المنطق على قرار ٦ أكتوبر .. فقد كانت كل المقاييس والتقديرات والاحتمالات والدعايات تؤكد أن عملية العبور واقتحام خط بارليف عملية انتحارية مائة فى المائة ولن تعود على القوات المسلحة المصرية إلا بهزيمة أشد ايلاما وأكثر قسوة من هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

ولم تكن هذه المقاييس والاحتمالات مجرد حرب نفسية أو تكهنات مغرضة بل كانت بناء على دراسات علمية مستفيضة خرجت من الحاسبات الالكترونية التى تمتلكها مراكز السلطة فى عواصم العالم المتحضر .. ولو أننى تركت أذنى وعقلى نهبا لهذه التيارات لكان الخوف من اتخاذ القرار نتيجة طبيعية لهذه التأثرات والضغوط ، وبالتأكيد كانت توجد عوامل غير منظورة .. لكننى قررت خوض المعركة بحيث أعالج كل عامل من هذه العوامل عندما يبرز فى الأفق .

ومع ذلك لم تكن العملية بالنسبة لى مجرد مخاطرة غير مأمونة العواقب . فقد كان يقينى – طبقا لحساباتى وبدون التأثر بأية

حسابات خارجية أخرى – أننا سننجح وسنثبت أقدامنا – بعد العبور – على الضفة الشرقية للقناة ، وسنهدم جدار الخوف الذى تفننت إسرائيل فى إقامته بكل الوسائل الاعلامية والأساليب السيكولوجية منذ انتصارها المزيف فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .

كانت احتمالاتى لنجاح الخطة تزيد عن ٨٠٪ ، وهذا ما حدث بالفعل .

وكان تقديرى أيضاً أن وصولنا للمضايق أمر ممكن ، ولكن لم تكن الأرض فى خطتى بقدر ما هدفت خطتى لضرب نظرية الأمن الإسرائيلية ، وتقويض المجتمع الإسرائيلى بالتالى بسقوط هذه النظرية من داخله ، وهذا ما وقع بالفعل ، ومازالت موجاته تغرق إسرائيل حتى الآن ولا تستطيع لها دفعا ، فقد أنهت حرب أكتوبر جيل الحرس القديم الذى قامت إسرائيل على أكتافه .

إذن كان من الأهداف الأساسية لحرب أكتوبر هدم جدار الخوف من أساسه عن طريق العبور ووقوفنا على الضفة الشرقية للقناة ، وهذا ما دعانى فى وقت من الأوقات لكى أقول لعبد الناصر على سبيل المجاز أن اقتحامنا القناة ووقوفنا على مجرد ١٠ سم من الضفة الشرقية للقناة كفيل بأن يغير الموقف دوليا سواء على المستوى الغربى أو الشرقى أو العربى .

وبالطبع كان عبد الناصر مدركا لهذا تماماً ، ولكنه كان حذرا بحيث كان اعتباره منصبا أساسا على حساب الخسائر والمخاطر .

ولكن استراتيجيتى كانت مختلفة بحيث تحولت الـ ١٠ سم إلى ١٥ كيلو متراً تقريبا .. ثم فى المرحلة الثانية وصلنا إلى المضايق ، وبهذا جنينا ثمار المعركة كاملة بنصف معركة فقط .

أقول هذا الكلام لكى أؤكد عمليا أن الاستسلام للمخاوف والأوهام كفيل بأن يجعل الإنسان يقبع فى عقر داره مشلول التفكير والإرادة .

وحتى فى هذه الحالة لن تتركه المخاوف والأوهام فى حالة،بل ستطارده إلى أقصى ركن فى داره لأنه استسلم لها فى بادىء الأمر .. وهى لا ترضى إلا بالاستسلام الكامل .

ولذلك يتحتم على الإنسان فى حالة استسلامه للخوف كنتيجة لفشله فى مهمته أن ينهض مباشرة من عثرته ، وبهذا الاتجاه الشجاع يمكن أن يحتفظ بأعصابه ويحقق نتائج أروع من التى كان يتمنى تحقيقها .

فالفشل هو أول خطوة فى الطريق المؤدى إلى النجاح .. ويكاد يجمع كل علماء النفس على أن العلاج فى جميع الحالات المرضية الناتجة عن الخوف إنما هو بأيدى أصحابها .

والخوف الذى يكدر على الإنسان صفو حياته ويكاد يشل

تفكيره ، عبارة عن احساس غامض بأن شيئاً ما سوف يحدث له دون أن يكون مهيئا لاستقباله أو الاستعداد له .. وهذا الاحساس يرجع أساساً إلى ما أحدثته المدنية الحديثة من ضغط وتوتر فى نفس الإنسان .. فقد أصبحت الحياة فى نظر معظم الناس أمرا بالغ التعقيد ، كما أن كل مظهر من مظاهرها يهدد بناء الشخصية الإنسانية ، فالإنسان المعاصر يبغى من الناحية الاجتماعية تأكيد ذاته ومنحها المزيد من التقدير ، ولذلك يخاف أشد الخوف أن يفقد شيئاً من الهالة التى أحاط بها نفسه . كما أنه يعيش من الناحية الجسمية فى فزع دائم من أن يصيبه مرض يقعده .. وبالمثل من الناحية الاقتصادية يعيش فى خوف وقلق مستمرين من أن يفقد ثروته نتيجة خطأ قد لا يكون هو المتسبب فى إحداثه .



فى هذا العالم المتمدين المعاصر يعيش الإنسان تحت ظروف من الضغط والتوتر والخوف من المجهول الذى يهدد كيانه فى أية لحظة من لحظات يومه .. ولكن مع كل هذا التوتر والخوف فإن عليه واجبا يتمثل فى المحافظة على كيانه النفسى والروحى لكى يعيش فى اتساق ووئام مع بيئته .. ولن يتأتى له ذلك إلا برجوعه إلى حظيرة الإيمان .

إن الاعتقاد – عند معظم علماء النفس والمفكرين – يزداد اليوم بأن معظم حالات الخوف المرضى ترجع إلى هذه الحقيقة وهى أن فقدان الثقة بالله يفقد الإنسان ثقته بنفسه وبمن حوله .. وضعف هذه الثقة يجعل الإنسان عندما تواجهه أزمة من الأزمات أو مشكلة لا قوة له على احتمالها يلتمس سبل اليأس فيلجأ إلى الشراب والمخدرات أو الانتحار وقد يصل الأمر به إلى الجنون .. وهذا ما يحدث الآن فى بلاد الحضارة المعاصرة التى بلغت فيها المدنية المادية قمتها ، بينما جفت ينابيعها

الروحية أو كادت .. ولذلك أصبح إنسان هذه الحضارة مطحونا ضائعا على الرغم من كل مظاهر الترف المادى المحيط به .

ويقول عالم النفس الأشهر كارل يونج أن جميع مرضاه ممن تخطوا الخامسة والثلاثين من عمرهم كانوا يلجأون آخر الأمر إلى الدين فى حلهم لمشكلاتهم .. ويقول أيضاً إن ما يعانيه الواحد منهم من مرض نفسى إنما هو نتيجة فقدانه هذا القدر من اليقين الذى يمنحه الدين لمعتنقيه . وأن شفاء الواحد منهم مرده إلى استرجاع ما فقد من نظرة دينية إلى الأمور .

ويؤكد عالم النفس الانجليزى هادفيلد نفس الرأى بعد سنوات طويلة من التجارب والدراسة فى علم النفس العلاجى حين يقول : « عندما اتحدث كمعالج نفسى – لا دخل له بالدين – فأننى أذهب إلى القول بأن الدين يعتبر احد القوى المؤثرة الهامة التى يمتلكها الإنسان للوصول إلى الراحة والسلام العقلى والروحى ، وإلى حالة الطمأنينة النفسية التى نحن فى أمس الحاجة إليها لإ قرار الصحة والعافية بالنسبة لعدد كبير من مرضى الخوف وضحاياه . لقد حاولت علاج مرضى الخوف بالايحاء إليهم بالثقة والاخلاد إلى الهدوء ولكن دون جدوى إلى أن ربطت بين الاتجاهات والثقة فى قدرة الله .. مصدر اليقين والأمل .. من هنا كان المريض يتحسن ويشعر بالقوة تعود إلى أعصابه الخائرة تدريجا . لذلك نحن نحتاج إلى اليقين من أجل التغلب على الخوف الذى تمتلىء به نفوسنا ، ولو أن إنسانا

خاف الحياة فهل تستيطيع قوة على الأرض – أيا كانت وأيا كان اسمها – أن تحول ما لديه من خوف إلى ثقة وعزم وشجاعة ؟

لقد توغل علم النفس الحديث فى دراسة مخاطر الخوف التى تهدد إنسان العالم المعاصر بحيث أصبح عاجزا عن مساعدة نفسه بنفسه وإلا لما بقى على ما هو عليه من عجز ويأس .

وقد قال عالم النفس (أدلر) إن الشعور بالخوف وفقدان الأمن شعور عام فى النفس البشرية ، ومن ثم فإن الإنسان طبقا لتكوينه النفسي – يكون فى حاجة إلى قوة تفوق فى قوتها قوة البشر من أجل تدبير أمور حياته .. لذلك فالدين الحق يمنح الإنسان الشعور بالأمن ويحول ضعفه وخوفه ثقة ويقينا .. والمؤمن الحق يشعر بأن كل قوى العالم تقف لمساندته ، وعن طريق هذا اليقين وهذه الثقة يظل بعيداً عن اليأس والقلق والخوف .

الفصل السابع

مصر فوق كل شيء

١

كثيراً ما تفهم الكرامة الشخصية فهما خاطئاً بسبب النظرة الذاتية الضيقة التى تفرض نفسها على الإنسان وتصيبه بالحساسية الشديدة التى تجعله يعتقد أن كل حركة أو سلوك تجاهه يهدف إلى امتهان كرامته . وفى الحال يشرع أسلحته لصد الهجوم المضاد الذى يتوهمه مما يوسع الفجوة بينه وبين الآخرين ويقضى تماماً على أية نظرة موضوعية للأمور . وهذا أكبر دليل فى حد ذاته على فقدان الثقة فى النفس وضعف الكيان الشخصى الذى يجعل الإنسان يتوهم أن كرامته فى مهب الرياح دائماً ومعرضة لكى يدوسها الآخرون . وتزداد خطورةُ هذه الظاهرة إذا كان الشخص يتولى منصبا قياديا ، إذ أنه فى هذه الحالة لن يستوعب أعباء المنصب وتبعاته بسبب عدم فصله بين أبعاد المنصب كمسئولية قومية عامة واهتماماته الذاتية مما يدخله فى دائرة مفرغة من التخبط والحساسية المفرطة التى يمكن أن تعود عليه بالعديد من العقد النفسية .

ولو كنت اتصرف من هذا المنطلق لاستطاع السوفييت توريطى مع إسرائيل دون أن استعد للحرب معها عام ١٩٧١ وهو العام الذى أعلنت أمام العالم كله أنه سيكون عام الحسم ، وذلك بناء على وعد السوفييت لى بامدادى بالاسلحة اللازمة لشن الهجوم ولكنهم لم يفوا بوعدهم حتى أبدو أمام العالم فى ثوب الزعيم الذى يقول كلاما لا يقدر على تنفيذه . ومع كل هذا لم تركبنى عقدة الكرامة الشخصية ، بل احنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت علىّ من موسكو ولكننى فى نفس الوقت أحنيت رأسى لمصر فمن أجلها هانت علىَّ أشياء كثيرة لأننى لم أكن أفصل بين كرامتها القومية وكرامتى الشخصية، بل من أجلها كنت دائماً على أتم استعداد لابتلاع كرامتى . كنت أضع فى اعتبارى دائماً أننى مادمت أحافظ على كرامة مصر فكرامتى الشخصية فى الحفظ والصون . فلم يكن يهمنى اطلاقا المظاهر البراقة الخادعة والعنتريات الجوفاء التى قد تشعل الحمية الوطنية للحظات تخبو بعدها لسنوات .

وإذا كنت قد عودت شعبى على أن أقدم لهم قطعة حية من تجاربى الشخصية حتى يتجسد أمامهم المفهوم العملى للكرامة ، فيكفى أن أحكى لهم قصتى مع سنة الحسم وهى التى حددتها بعام ١٩٧١ . فى هذا العام قمت بثورة التصحيح وأدرك السوفييت – طبقا لاعتقادهم – أننى قمت بتصفية من كانوا يسمونهم برجال موسكو .. ولذلك جاء بودجورنى فى سرعة

البرق لكى يزور القاهرة فى مايو ١٩٧١ . أى بعد قيام ثورة ١٥ مايو بأيام . وظل يلح علىّ الحاحاً رهيباً أن أعقد مع السوفييت معاهدة صداقة على الرغم من أن عبد الناصر طلبها منهم قبلى فرفضوا ، ثم عاد ليطلب عقد حلف معهم فأصروا على الرفض . كان فى اعتقاد السوفييت أن ثورة التصحيح المصرية فى مايو ١٩٧١ كانت بمثابة ضربة قاسمة لنفوذهم فى المنطقة وانتصار غير مباشر للأمريكان . ولذلك أرادوا بمعاهدة الصداقة تلك أن يؤكدوا للعالم أن مكانتهم الأثيرة فى المنطقة مازالت كما هى على الرغم من تصفية رجالهم .

لم أجد مانعا من عقد المعاهدة لأن همى الأكبر كان الحصول على الأسلحة اللازمة لحسم القضية عام ١٩٧١ . وسافر بودجورنى من القاهرة وفى حقيبته معاهدة صداقة مع مصر اعتبرها السوفييت ضمانا جديدا للعلاقات الودية بيننا ، ورأت فيها الصحف السوفييتية نجاحا للاتحاد السوفيتى وهزيمة للولايات المتحدة التى حاولت بزيارة – روجرز لمصر فى ٣ مايو ١٩٧١ أن تدق أسفينا فى العلاقات المتينة بين البلدين طبقا لتعبيرهم . كما أن السوفييت رأوا فى هذه المعاهدة بعد تصفية رجالهم فى السلطة ، تأكيدا لأن العلاقة بيننا ليست علاقة أشخاص بأشخاص ، وإنما هى علاقة دول أى علاقة أبقى وأهم من الأشخاص .

لكن همومى لم تخف ، فعندى تجارب معهم قبل ذلك طويلة وعديدة ، ولكننى ومع ذلك جعلت أمنى نفسى .. ولم يغب عن بالى لحظة واحدة أننى قد حددت سنة ١٩٧١ بسنة الحسم ، وأصبح معروفا للعالم كله .. وللسوفييت قبل غيرهم .. ما هذا الذى نريد أن نحسمه .. ما هو المطلوب من السوفييت لكى يساعدونا على ما نحن فيه ، وما نحن مقبلون عليه .. وأهم من ذلك كله أننى أوضحت كل شىء .. فتحت قلبى للسوفييت تماماً وأطلعتهم على كل خباياى .. أى أنه لم يعد لهم أى عذر فى الوقوع فى أى سوء تفاهم أو سوء فهم .. وقد تنبه المعلقون السياسيون والصحف الغربية إلى عبارة جاءت فى كلمة الترحيب فى الحفل الذى أقمته لبودجورنى وقلت فيه :

« نحن نريد أن يعرف الكل أننا لسنا على استعداد لأن نفرط فى الأرض أو فى الحق مقابل سراب ، كما أن الكلمات المعسولة ليست دليلا على صدق النوايا التى وراءها » .

٢

واسترحت إلى أن المعانى التى أردت أن أؤكدها للسوفييت أمام العالم كله ، قد بلغت غايتها ، فأنا أريد فقط من السوفييت أن يفهمونى وأن يقدروا موقفى.أمام شعبى وأمام العالم كله ، وأن تكون الصداقة والكلمات الحلوة حقيقة وليست فاتحة للشهية ، ثم يجىء بعدها طعام .

ولكن من المؤكد أن السوفييت ليسوا سعداء لكل ما حدث فى مصر بعد عبد الناصر . فأنا لست رجلهم ، وإننى صفيت رجالهم .. وإننى ألغيت الحراسات التى فرضت على الناس ، ثم إننى بطبيعتى ضد القهر والظلم وإثارة الحقد بين الطبقات والفئات ، كما أننى أسمح بالخلاف فى الرأى ولا أسمح بالصراع ، ثم إننى أكدت أننى مختلف معهم وصارحتهم بغضبى وضيقى .. ولابد أنهم يتوقعون منى ما يضايقهم أكثر .. وقد هددتهم بأن للصبر حدودا وبعدها لابد أن أقول للشعب ماذا جرى .. وفى ذلك فضيحة لهم أمام العالم كله .. فلا يعقل أن أحافظ على كرامتهم بينما هم لا يعيرون كرامتى

أدنى التفات . ولذلك فهم يخافون أن أكشف القناع الذى يضعونه على وجوههم فيعرف الشعب حقيقتهم .. وحقيقة الهوان والعذاب الذى لقيته وتلقاه مصر معى على أيديهم .. لهذا كله كان لابد أن يفعل السوفييت شيئاً بسرعة فى مصر أو فى السودان أو فى أية دولة أخرى فى العالم العربى أو فى الشرق الأوسط كله .. وقد حدث بوضوح بعد ذلك .. وكان الانقلاب الشيوعى الذى فشل فى السودان فى يوليو ١٩٧١.

بعد هذا كله ، وبسببه حصلت قطيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى لا كلام بيننا ولا سلام أيضاً .. ولكن كان مفهومى للكرامة ينهض على أساس ما أعلناه من مبادىء ومواقف مهما اقتضانا ذلك من جهد وتضحيات .. فلن نسمح لهذه الأزمة أن تتجمد معالمها ومعالم حقنا تحت تراب النسيان .. لابد أن نتحرك وإلا ضاعت الكرامة الحقيقية لمصر .

من هذا المنطلق وحده بدأت أنا الكلام مع السوفييت برغم القطيعة التى فرضوها على العلاقات بيننا .. فالمسألة ليست كرامتى الشخصية ولكنها كرامة مصر .. بعثت أذكرهم بما قاله بودجورنى من أن كل الأسلحة المطلوبة سوف تصلنى بعد أربعة أو خمسة أيام من تاريخ عودته إلى موسكو ، وأن ذلك العام هو عام الحسم وشرحت لهم معنى الحسم .. ولكن السفير السوفيتى يجىء وعلى لسانه العبارة التى عرفتها ومللتها : القادة السوفييت فى القرم . أى أنهم يصطافون على شاطىء

شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ولذلك فالدنيا كلها معطلة : ذهابا لا شىء يصل ، وإيابا لا شىء يجىء !!

وأعود أذكرهم بالمعاهدة التى بيننا . والجواب : القادة فى القرم .. وأقول للسفير : أن موقفى من السودان موقف مبادىء .. قل لهم ذلك .

فيقول : إنهم فى القرم

– وسنة الحسم .

– القادة فى القرم

– ماذا أقول للشعب المصرى وللعالم العربى والعالم كله ؟

– فى القرم ! !

أما ما الذى يجب أن أفعله فهذه مسأله تخصنى أنا وحدى .. ومن الضرورى أن أفكر فى كل الذى قلته ووعدت به .. لابد أن أجد لى صيغة مناسبة أواجه بها الشعب . هل أحكى للشعب قصة السوفييت ؟ هل أفضح هذه العلاقة ؟ لو فعلت ذلك لكان اضرارا مباشرا بالسوفييت . هل من مصلحة مصر أن أفعل ذلك ؟ ثم ما هى أقصى درجات احتمالى للأذى ؟ إننى قادر على أن أحتمل الكثير ، ورصيدى من الصبر كبير .. ولكننى أخشى أن ينضب هذا الرصيد فأجدنى أمام حالة من الغضب لا استطيع أن أسيطر عليها . ولكن مصر ؟ إن من

أجلها يهون كل شيء .. وقد هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة على نفسى حتى كرامتى هانت من أجل مصر .. ابتلعتها كثيراً وشربت وراءها أكوابا من التشهير بى وبنظامى فى الحكم .. وفى كل يوم كنت أشعر أنهم لا يجففون الجراح وإنما يضعون الملح على الجراح .

٣

وأخيرا وفى آخر سبتمبر جاءنى السفير السوفيتى يقول لى : القادة السوفييت على استعداد لأن يروك .

قلت : خير .. متى ؟

قال : فى ١١ ، ١٢ أكتوبر .

ولا أظن أن السفير قد لاحظ أننى كتمت غيظى أو ربطت « الدم على القيح » كما نقول فى الريف .

فقلت : لا مانع .. أنها قضية مصر .

ولكى يفهم الرجل بالضبط ما أردت أن أقول كررت المعنى قائلا : إنها قضية مصر ومن أجلها فإننى أتهاون مع نفسى .. رغم كل ما أصابنى .. قبلت هذه الدعوة فوراً .. ولم أقل له ما كان يدور فى نفسى من أنه لو كان الأمر يخصنى أنا ما ذهبت إلى موسكو أو حتى رأيت هؤلاء الناس .. ولكن الضرورة لها أحكام .. والضرورة هى مصر ، وأحكامها أن أمد يدى أطلب المزيد من السلاح .

وكما حدث فى أول مارس سافرت إلى موسكو فى ١١ أكتوبر والذى جرى فى الكرملين هو ما توقعته بالضبط .. فقد كان لزاما علىّ أن أروى من جديد كل ما حدث للعلاقات بيننا وما وعدوا به جمال عبد الناصر وما وعدونى به . مع أننى حكيت ذلك عدة مرات ومن الغريب أن لديهم استعدادا لسماع الشيء الواحد ألف مرة . وكأنهم يسمعونه لأول مرة . وأعدت عليهم ما سبق أن قلته إلى أن وصلت فى كلامى إلى ذكر « سنة الحسم » فإذا بهم فى نفس واحد يسألون : « قل لنا شيئاً عن سنة الحسم هذه ؟ » أقول لهم عن سنة الحسم ؟ بعد كل هذا الذى أعلنته فى مصر أمام رجلهم بونا ماريوف وما أعلنته بعد ذلك وما حكيته لهم .. مطلوب أن أشرح لهم معنى سنة الحسم ؟ ثم مطلوب منى أن أشرح لهم ما هو الحسم ؟ .

المهم أن القادة السوفييت وعدونى بإرسال الأسلحة التى طلبتها قبل نهاية عام ١٩٧١ وتوالت الشهور بطيئة جداً وموجعة جداً للنفس والكرامة وأحسست بأسنان الزمن أليمه . واقترب أكتوبر وانتهى وجاء نوفمبر واختفى ثم ديسمبر وفى يوم ٨ ديسمبر وقعت الحرب بين الهند وباكستان ، ووقف الاتحاد السوفيتى إلى جانب الهند واستخدم مطارات مصر قاعدة لإمداد الهند بالذخيرة والسلاح !

وفى نفس الوقت الذى كنت فيه فى موسكو كانت أنديرا غاندى تلف العالم تمهد لهذه الحرب سياسيا وإعلاميا .. إذن فقد

كان السوفييت يعلمون ما سوف يحدث فى ديسمبر وكانوا قد أعدوا كل شيء لذلك ، وكان فى استطاعتهم أن يقولوا لى : لا داعى لسنة الحسم هذه .. فسوف نكون مشغولين لسبب أو لآخر ، ولكنهم لم يفعلوا ، وأخمدت غيظى فى نفسى وقلت : لقد كانوا أصدقاءنا فى الحرب ، وكذلك كانت الهند .

وبعملية حسابية بسيطة جداً أدركت أن سنة ١٩٧١ لن تكون سنة الحسم .. وليس من العقل أن أجعلها كذلك .. فإن حرب الهند وباكستان قد لفتت العالم كله واسترعت كل اهتمام الناس وعطفهم وغضبهم .. وحرصهم على المساعدة أو التوسط أو الدعوة إلى السلام . ولا يمكن أن تحظى مصر بهذا كله ، فسوف تكون حربنا هذه قضية صغيرة أمام قضية كبيرة أو حدثا عابرا أمام كارثة دولية .

إذن لقد انتهى كل شيء ولن تكون سنة ١٩٧١ هى السنة التى ناديت بها ووعدت وهددت .. باختصار انحسمت سنة الحسم بلا حرب ، وابتلعت كرامتى حتى أتفادى موقفا قد أندم عليه فيما بعد .

استدعيت يوم ٩ ديسمبر السفير السوفيتى لأقول له : واضح الآن أنكم لن تبعثوا بأية أسلحة .. وإذا جاءت فبعد عام الحسم .. فما هو العمل ؟

ولم يقل السفير شيئاً .

وقلت : حتى إذا أرسلتم هذه الأسلحة ، فلن تصل قبل فبراير .. وبعد ذلك بشهور يتم تركيبها والتدريب عليها .

ولم ينطق السفير .

ولم يرسل السوفييت هذه الأسلحة حتى كتابة هذه السطور عام ١٩٧٧ .

وعدت أهز السفير بعنف : ماذا أقول للشعب .. إننى لو حكيت كيف حدث هذا كله وما كان منكم لكانت هذه فضيحة كبرى لكم .. ولأضرت بكم ضررا بالغا فى المنطقة وفى العالم كله . ومع ذلك لم أدع إحساسى بالكرامة المجروحة يسيطر على الموقف ويفقدنى تحكمى فيه .. فطلبت من السفير السوفيتى أن يبلغ موسكو أننى أريد رؤية القادة السوفييت قبل نهاية ديسمبر .. هذه المرة دعوت نفسى إلى زيارة قادة الكرملين لأن كل شىء يمكن أن يهون فى سبيل مصر .. قلت للسفير : قبل أن أصل أحب أن يكون معروفا مقدما أن الغرض من هذه الزيارة هو أن نصدر بيانا نغطى به الموقف الفظيع الذى يواجهنى فى مصر وفى العالم كله .

وتوقعت أن يحددوا الموعد بعد أسبوع أو أسبوعين .. لم يحدث شىء من ذلك فقد مضى أسبوع ومن بعده أسبوع آخر ، وفى يوم ٢٨ ديسمبر جاءنى السفير السوفيتى يحمل هذه البشرى : القادة السوفييت يسعدهم أن يستقبلوك فى ١ ، ٢ فبراير .. ومعنى هذا أنه مطلوب منى وحدى أن أغطى موقفى .. فأنا

الذى قررت وينبغى على أن أتحمل النتائج مع أننى لم أقرر ذلك إلا استنادا إلى وعودهم وعلى أرفع مستويات القيادة السوفيتية . إذن هذا هو المطلوب !

معنى ذلك ! أنه إذا كان السوفييت برجالهم وعملائهم لم يفلحوا فى إسقاطى ، فهذه هى الفرصة التى أقوم فيها باسقاط نفسى .. بيدى لا بيد السوفييت !

ومع ذلك أحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت من موسكو فأطاحت بسنة الحسم كلها ، ولكن لن أسمح لها بأن تطيح بى وبآمال شعبى .. وعندما أحنيت رأسى للعاصفة أعترف أننى أحنيته لمصر .. فقلت للسفير : قل للقادة السوفييت أننى مسافر إلى موسكو يوم أول فبراير .

أحب أن أضيف لشعبى قولى بأنه لم يكن من السهل على نفسى وما كان فى أى وقت أن أقول أن سنة الحسم ذهبت بلا حسم .. وهى عبارة قصيرة تمر عليها العين فى ثانية .. ولكن كم من الساعات وأنواع العذاب والهوان عصرت نفسى وطويتها على أشد أنواع المرارة التى عرفتها فى حياتى .. ولو كان الأمر يخصنى وحدى لهان كل شيء .. وقبل ذلك هانت على نفسى أشياء .. ولكنها قضية شعب ومستقبل أمة ، وقدر منطقة .. لقد ذهبت سنة الحسم ، وكان على أنا وحدى أن أواجه الشعب وأقول ما أقدر عليه .

٤

وأشهد الله سبحانه وتعالى أننى لم أكن وحدى فى هذه المحنة فقد كان الشعب العريق معى وكانت مشاعره كلها تشد أزرى .. فشعبنا أدرك بوجدانه الأصيل أننى كنت صادق العزم ، وأن السوفييت هم الذين أخطأوا فهمى وفهم الشعب وأخطأوا فى الحساب .. أرادوا أن يكشفونى فانكشفوا .. أرادوا أن يغرقونى فى وعودى فغرقواهم بوعودهم .. وثار الناس عليهم فى كل مكان فى مصر .. إن الذى يسترجع ما قيل فى الصحف وفى البيوت وفى المدارس وفى الشوارع وفى كل مكان .. يجد أن الناس قد صبوا الغضب كله على السوفييت .

ولم أترك العنان مرة أخرى لكرامتى الشخصية لكى تثأر منهم بشكل أو بآخر .. فعلى الرغم من كل ما حدث .. وقفت فى مجلس الشعب أحييهم وأشيد بصداقتهم ، وأذكر لهم مساعدتهم لمصر فى أشد الأزمات .. والله يعلم أننى كنت صادقا فيما أقول .

كان كل هدف إسرائيل فى هذه المرحلة أن تضع العالم كله أمام الأمر الواقع بالنسبة للوضع فى الشرق الأوسط .. والأمر الواقع هو أن يبقى اليهود على أرضنا كما هم .. ونظل نحن نحترق فى عجز ويأس وهوان كما نحن .. ونحن بدورنا نستحق هذه العقوبة وزيادة إذا ارتضينا الهوان ، وإذا قبلنا الجمود .. وإذا نظرنا إلى الضفة الشرقية من القناة ولم تغل الدماء فى عروقنا .

إن لنا مئات الآلاف من الجنود يعيشون تحت نار الشمس وفوق التراب وأيديهم على السلاح ينتظرون لحظة الانتقام للكرامة وللأرض وللعرض . تلك الكرامة كانت الهدف الاستراتيجى الرئيسى والنهائى الذى حشدت له كل طاقاتى وأعصابى بحيث لم أشتتها فى معارك فرعية وثانوية من أجل الكرامة الشخصية التى أعتبرها جزءا لا يتجزأ من الكرامة القومية .

ومع أوائل عام ١٩٧٢ اشتد الهجوم العنيف فى مصر على السوفييت .. فهم الذين تخلوا عنا لأنهم أرادوا أن يؤكدوا لى وللعالم ! أننى لا استطيع أن أتخذ قرارا .. فالقرار قرارهم والرأى رأيهم تماماً كما عرضوا علينا من قبل أن نستخدم طائرات تتلقى أوامرها من موسكو .. ومعنى ذلك – تأديبا لى وتحذيرا جديدا – أنه بعد الآن يجب ألا أعلن قرارا قبل أن آخذ موافقتهم على ذلك .. فسنة الحسم هذه ما كان يجب أن

أعلنها ، قبل أن اخطرهم بذلك .. وإذا أخطرتهم قامت لجانهم وهيئاتهم تدرس الموضوع سنة بعد سنة حتى تصل إلى قرار ، ويجىء القرار بعد عشرة أو بعد عشرين سنة ، هذه هى الأصول التى يريدون منى أن أتبعها وألا أخرج عنها .

استشعر الناس فى مصر جرحا غائرا فى كرامتهم ، وفوجئت فى ذلك الوقت بعريضة موقعة من عدد من السياسيين وأعضاء الاتحاد الاشتراكى يتحدثون فيها عن محنة فظيعة تهدد مصر شعبا وأرضا وحضارة ويؤكدون أن الاتحاد السوفيتى يقدم لمصر العون الذى لا يسمح بتحرير الأرض واسترداد الحق .. وقالت العريضة إنه آن الأوان لأن ترسم مصر سياسة التحرير الوطنى على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها .. روحية ومادية هى الركيزة الأولى والأمنية الوحيدة لتلك السياسة .. وأنه آن الأوان لمواجهة الاسراف فى الاعتماد على الاتحاد السوفيتى لأن الاعتماد على السوفيت كل هذه السنوات لم يحقق تحرير الأرض وردع العدو .

وبرغم كل ما أعرفه من مشاعر الناس ، فأنا واحد من أبناء الشارع وأنا فلاح أدرك تماماً مدى عمق هذه الجراح ، فقد دافعت عن السوفييت وعن الصداقة بيننا . وذكرت لهم فضلهم .. بل إننى ذهبت إلى القول أمام مجلس الأمة أهدد بعد كل ما فعله السوفييت بى : هذا موقفى والذى لا يريد أن يتعاون معى فليقدم استقالته أمام المجلس .. إلى هذه الدرجة

كنت أغطى موقف السوفييت الذين أرادوا تعريتي وجرح كرامتى أمام الشعب وأمام الأمة العربية ، وأخيرا سافرت إلى موسكو فى أول فبراير ١٩٧٢ بناء على طلبى ثم فى ٢٨ أبريل من نفس السنة بناء على طلبهم كنوع من استعراض قوة السوفييت أمام الأمريكان قبل زيارة نيكسون لهم فى مايو .

وعندما وجدت أن السوفييت يفترضون فىّ الوفاء المستمر بطلباتهم بينما يرفضون أو يتجاهلون تنفيذ أى وعد من وعودهم لمصر بإمدادها بالأسلحة المطلوبة لاسترداد كرامتها المهدرة فى سيناء وعلى الضفة الشرقية للقناة ، اتخذت دون أدنى تردد قرارى بإنهاء مهمة الخبراء السوفييت فى ٨ يوليو ١٩٧٢ .. وحتى هذا القرار التاريخى الخطير لم أتخذه انتقاما لكرامتى الشخصية التى تصور السوفييت أنها أصبحت لعبتهم المفضلة ، بل أصدرته من منطلق قومى بحت يؤكد بأسلوب عملى أن المعركة معركة مصر وليست معركة الاتحاد السوفيتى بأية حال من الأحوال . ولم يفهم السوفييت هذا المنطق القومى إلا بعد مدة طويلة .

٥

كل ما أريد أن استخلصه من كل هذا السرد لشعبى أن إسرائيل والاتحاد السوفيتى تصوروا أنه بالضغط النفسى والمادى علىّ يمكن أن أنفجر ثأرا لكرامتى مما قد يورطنى فى مواقف متتابعة لم أستعد لها سياسيا وعسكريا وبالتالى يسوء الموقف فى الشرق الأوسط أكثر من السوء الذى بلغه .

لم يكن مفهومى للكرامة شخصيا .. ضيقا بحيث أثور لأية بادرة عدائية من الطرف الآخر الذى غالبا ما يكون هدفه إثارتى المفاجئة الطارئة لكى يفلت زمام الأمور من يدى .. تركز مفهومى العملى للكرامة فى يوم الثأر العظيم من إسرائيل الذى شهده العالم كله مشدوها يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

فالكرامة عندما تثور يجب أن يكون لها من الأدوات والوسائل العملية ما يمكنها من إجتياح من سبق لهم أن داسوها بالأقدام .. وإلا تردى الوضع إلى ما هو أسوأ منه .

أريد من شعبى أن يعى هذا الدرس جيدا فليس هناك ثمة شيء يهدد الكرامة الشخصية للإنسان أكثر من الفورة العصبية الطارئة .. والانفعال التلقائى المتفجر . والحكم المتسرع الطائش .. فهذه كلها عناصر نتخيل أنها وسائل سريعة وحاسمة للانتقام لكرامتنا ولكنها غالبا ما تؤدى إلى نتائج عكسية تماماً قد تضع الإنسان فى مواقف لا يحسد عليها . يظن معظم الناس أن الكرامة الشخصية لا تعنى سوى التميز والسطوة والسلطة ورفض أى نقد من أى إنسان .

وبهذا يفقد النظرة الموضوعية تماماً .. وقد جربت فى حياتى هذا النوع من الناس ، فعندما أتناقش معه بهدوء وأوضح له بهدوء أكثر أنه قد اخطأ فى كذا وكيت ، أجده محاولا كبت الغضب داخله لأنه يتصور أن المناقشة قد سارت فى طريق ضد كرامته .. وللأسف فإن هذه الظاهرة تتفشى أكثر بين الذين حصلوا على الدرجات العلمية مثل الدكتوراه وغيرها . فبمجرد اختلاف وجهات النظر يشعر أن كرامته قد أهدرت لأن عقله الباطن يؤكد له دائماً من طرف خفى أن علمه النظرى الغزير قادر على أن يجنبه الوقوع فى الخطأ ، وهذه نظرة قاصرة إلى الأمور لا تمت إلى الموضوعية الأكاديمية بصلة من قريب أو بعيد .

٦

فى أحد اجتماعات مجلس الوزراء ضربت للوزراء أمثلة حية على المفهوم الخاطىء للكرامة وهو مفهوم خطير لأنه يؤثر عمليا على فكرنا وسلوكنا .. فمثلا فى يوم من الأيام حدث تعديل وزارى أدى إلى انتقال بعض الوزراء من مناصبهم إلى مناصب أخرى كأن ينقل مثلا وزير من وزارة عادية من الوزارات إلى منصب وزير دولة ، فيعتبر هذا اهدارا لكرامته ، أو أن يعين أحدهم نائب رئيس وزراء بدون أن يرأس وزارات محددة على الرغم من أن مهمته الاشراف على قطاع كامل من الوزارة كلها .. ومع ذلك يضع كرامته فى الميزان .. وللأسف هذا المفهوم الخاطىء للكرامة مازال يؤثر على فكر وسلوك البعض من كبار المسئولين حتى الآن .

بعد ذلك التعديل جمعت مجلس الوزراء وعبرت لهم عن أسفى لوجود هذا المفهوم الخاطىء للكرامة بين معظمهم وشرحت لهم أمثلة حية من حياتى لكى أوضح لهم معنى الكرامة الحقيقية .. فقد كنت مثلا فى يوم من الأيام وزير دولة

فى عام ١٩٥٤ وكان ذلك هوالمنصب الرسمى الوحيد الذى توليته لفترة محدودة جدا بعد قيام الثورة وإلى أن عينت نائبا لرئيس الجمهورية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩ . وتراوح عملى بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٩ بين جريدة الجمهورية والمؤتمر الإسلامى ومجلس الأمة .. وذلك يعنى أن الإنسان هو الذى يصنع المنصب وليس المنصب هو الذى يصنع الإنسان .

فى تلك الفترة أيضاً استدعى الأمر أن أعمل وكيلا لمجلس الأمة كان رئيسه هو زميلى فى مجلس قيادة الثورة ومن نفس الصف . وقبلت فى الحال بينما رفض زملائى هذا المنصب ظنا منهم أنه يمس كرامتهم عندما يعملون تحت رئاسة زميل لهم .. فقد طلب منى جمال عبد الناصر قبول هذا المنصب لأن المصلحة العامة تقتضى ذلك بسبب الصراع الذى نشب حول منصب الوكيل .

ولكن لم يكن منصب وكيل مجلس الأمة بالضحالة التى ظنها فيه كل الزملاء من وزراء مدنيين أو عسكريين وغيرهم ممن رفضوا قبول هذا المنصب .. وذلك لأن الوكيل فى غياب الرئيس له الحق فى رئاسة المجلس والحصول على كل صلاحياته وسلطاته .. وفى أغلب الأوقات يتبادل الرئيس مع الوكيلين الجلسات بصفة شبه دورية ولذلك لم أجد أية غضاضة فى قبول المنصب عندما عرضه علىّ جمال عبد الناصر قبل انعقاد المجلس بساعات قليلة .. ولم يأخذ القرار منى تفكيرا يزيد عن دقيقتين

لأننى لست من النوع الذى يضع كرامته فى الكفة المقابلة لأى أمر من أمور الحياة .. فالمسائل تقاس بالجوهر وليس بالمظهر البراق الخادع .

قلت هذا للوزراء وشرحت لهم ما نراه فى دول الحضارة المعاصرة عندما تستقيل الوزارة ثم يدخل رئيس الوزارة المستقيلة وزيرا عاديا فى الوزارة الجديدة .. فأحياناً يعمل وزير خارجية أو داخلية أو مالية ، وأحياناً يعمل وزير دولة إذا لم يجدوا له وزارة محددة .. ولكن هذا لايقلل من شأنه اطلاقا فى نظر المسئولين الآخرين أو عند الفئات الشعبية . للأسف مازلنا نفتقر إلى هذا النضوج لأن مفهومنا للكرامة مازال ذاتيا ضيقا تقليديا . بينما للكرامة معنى كبير جدا لا يصح الزج به فى كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا .

فى أغلب الأحيان يؤدى هذا المفهوم الخاطىء للكرامة إلى كثير من مركبات النقص والعقد النفسية التى تحول بين الإنسان وبين فهمه للآخرين فهما صحيحا . فهو دائم التحفز والهجوم لاعتقاده أن كرامته دائماً فى خطر .. وهذا المفهوم يتفشى عند المثقفين أكثر منه عند العامة .. ويمكن أن يؤثر على أقدار الأمة إذا تحكم فى المسئولين عن سير الأمور فيها .. ولحسن الحظ عندما قابلت الرئيس جيمى كارتر لأول مرة فى أبريل ١٩٧٧ وجدت أننا نشترك فى مفهوم واحد للكرامة .. فعندما كنا نناقش أعتى الأمور وأصعب المشكلات من خلال

نقط خلاف كثيرة ومتنوعة .. لم يعرف التوتر والضيق والتشنج طريقه إلينا .. فلم ينظر كلانا إلى الأمور بالمنظار التقليدى الضيق سواء إلى الكرامة القومية أو الكرامة الشخصية .. كان يمكن لهذا المنظار أن يدخل المفاوضات فى طرق مسدودة – ومتاهات جانبية لا يستطيع الطرفان الخروج منها مرة أخرى إلى الطريق الواضح السليم .

إننا فى أشد الحاجة إلى هذا المفهوم الناضج للكرامة .. فعندما يتحول إلى جزء من فكرنا وسلوكنا سنجد أن التفاهم بيننا أصبح أكثر سلاسة ومرونة وموضوعية . فالكرامة معنى رفيع وكبير يجب أن نترفع عن اقحامه فى كل دقيقة من دقائق حياتنا . لأن الشخص القوى الواثق من نفسه يعرف جيدا أن كرامته فى حصن حصين مادام قد حاز احترام الآخرين بفكره الناضج وسلوكه المتحضر .. إن هذا المفهوم الحقيقى للكرامة ضرورى وحيوى لبناء الإنسان المصرى سواء على المستوى الإنسانى الشخصى أو على المستوى الوطنى القومى .

الفصل الثامن

معنى النجاح الداخلي

١

يكاد ينحصر مفهوم النجاح فى الحياة عند معظم الناس فى النظرة التى ينظر بها الآخرون إليهم ، لدرجة أن النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا اعترف به الآخرون .. هذه النظرة تجعل الإنسان عبدا للآخرين لأنه يقيس الأمور بمقياسهم وبالتالى يفقد القدرة على ممارسة أصالته الذاتية التى تهتم بالمظاهر ، وأيضاً لا يستطيع القيام بدور قيادى فى مجتمعه لأنه حكم على نفسه بأن يكون تابعا للآخرين . لذلك فأنا أؤمن بالنجاح الداخلى لأنه لون من النجاح الأصيل لا يحسه الناس فى أغلب الأحيان . فهو مرتبط بالقدرة على التأمل وادراك الذات . ومن طبيعة هذا اللون من النجاح أنه يملأ الإنسان ثقة فى نفسه ورضاء عنها . وإذا ما رضى الإنسان عن نفسه فى هذه الدنيا فقد فاز بأكبر درجة من درجات السعادة . والإنسان إذا سعى إلى النجاح الداخلى وأحس به كان مالكا لأعظم متعة روحية تحطم أمامها الكثير من متاعب هذه الحياة وآلامها .

فقد اعتدنا فى حياتنا على أن النجاح الخارجى الذى يراه الناس فينا هو النجاح الوحيد الجدير بأن نسعى إليه ونشقى فى سبيله ، واعتدنا أيضاً ألاَّ نتقيد بالوسائل فى سبيل بلوغ هذا النجاح لكى نطلع به على الناس . وقليل منهم من يسأل كيف كان هذا النجاح ، وانتصارات الإنسان فى نجاحه الخارجى لابد أن يلمسها الناس فى مال أو جاه أو منصب ، سيسعد بها صاحبها ، ولكن سعادته تظل معلقة ومقيدة بما يراه الناس لأنه أسس نجاحه على رأيهم .

أما انتصارات الإنسان فى نجاحه الداخلى فلن يعرفها أو يحس بها إلا صاحبها لأنها انتصار لمبدأ قويم أو لمعنى سام أو لفضيلة معينة . سيسعد بها صاحبها أيضاً ، ولكن إلى الأبد . سيسعد لأن هذه الانتصارات ستشعره فى كل لحظة من لحظات حياته أنه يستطيع أن يكون مركزاً لاشعاع المثل الطيب والمبدأ القويم والإيمان بكل ما هو كريم وشريف فى هذه الحياة وسيسعد لأن بريق هذه الانتصارات لن يذهب أبداً بل سيظل يضىء كلما تقدمت السنون والأيام ، وسيظل صداها يحفز لانتصارات أخرى لن تكون إلا كريمة وشريفة لهذا سأظل أؤمن بالنجاح الداخلى حتى لو لم ينعكس على الناس لأنه لن يوزن فى يوم بموازين النجاح الخارجى .

يؤكد الفيلسوف الألمانى شوبنهاور هذا الخط الفكرى فيقول إنه لا مخرج من الحصار الذى يفرضه الآخرون على الإنسان إلا بالتأملات الروحية للحياة . والبحث فى انتصارات المفكرين والفلاسفة والعلماء والقادة الروحيين فى جميع العصور وجميع البلاد ، فلمثل هذه القيم الفكرية والروحية والمثل الإنسانية والحضارية عاش أولئك العظماء ، ولذلك لن يسمو ولن يخلد سوى ذلك الفكر الذى يتجلى فى البعد عن الأفق الضيق من جراء المقارنة الدائمة بين الذات والآخرين ، وعلى حد قول شوبنهاور فإن الفكر الموضوعى يطغى كالعطر الساحر فوق أخطاء المجتمع التقليدى وحماقاته . والمأساة أن أغلب الناس يسمحون لانسياب أفكار الآخرين أن يحبس ويكبت أفكارهم الأصيلة ، بل يشل مع الزمن قدرتهم على التفكير وتتحول عقولهم بالتبعية إلى مجرد نوع من آلات الامتصاص نتيجة لفقر عقولهم التى تجتذب إليها أفكار الآخرين عنوة ، وبالتالى فهم يفقدون كل عناصر النجاح الداخلى وأهمها الأصالة وحرية الاختيار ووضوح الرؤية والثقة فى النفس . لذلك نجد أغلب الناس يلهثون وراء النجاح الخارجى الذى يفقدهم القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعى ، والذى يلهب ظهورهم بسياط من نار لكى يلحقوا ببقية القطيع .

إن النجاح الداخلى يساعد الإنسان على أن ينظر إلى ذاته على أنها موضوع فى حد ذاته بصرف النظر عن علاقتها النسبية

المتغيرة مع ذوات الآخرين ولذلك فالإنسان الناجح داخليا يستطيع أن يستقل نفسياً عن الآخرين وعلى أثر ذلك يحل فى قلبه السلام والطمأنينة والهدوء وكل العناصر التى ينشدها الإنسان دائماً ، وهى العناصر التى تهرب دائماً من الإنسان بمجرد السير فى أذيال الآخرين . ولذلك يجب ألا يبحث الإنسان عن سعادته عند الآخرين ، لأن السعادة بمنتهى البساطة بين يديه .. بمعنى أن الآخرين لا يمنحون الإنسان السعادة بقدر ما يستخرج هو السعادة منهم .

٢

يذكرنى هذا بالمقتطفات والمأثورات التى كتبتها فى كراسة السجن منذ ثلاثين عاما وهى الكراسة التى مازلت أحتفظ بها حتى الآن إذ أنها تحتوى على عصارة قراءاتى التى أثرت على منهجى الفكرى طوال حياتى فمثلا يقول الكاتب الأمريكى فرانك كرين أن حياة الأمم العظيمة تبتدىء من بدء إعلان استقلالها ، ولذلك يبدأ الفرد حياته الشريفة من يوم أن يعلن استقلال نفسه ، هذا الاستقلال الذاتى للفرد شرط أساسى لنجاحه الداخلى الذى يحتم عليه ابتكار معايير أصيلة خاصة به فى قياس الأمور التى تمر به فى حياته اليومية ، أما إذا وضع منظار الآخرين على عينيه فلن يرى إلا ما يراه الآخرون وبذلك يفقد أصالته وتضيع ملامح شخصيته المستقلة .

إن روح القطيع عندما تسيطر على الإنسان فإنه يتحول إلى جزء ليست له قيمة كبيرة في مواجهة الكم الهائل الضخم الذى ينتمى إليه . وللأسف فإن الحضارة الحديثة بضغوطها المادية والتكنولوجية الرهيبة تسعى تدريجيا إلى القضاء على تفرد

الإنسان وشخصيته المستقلة مما جعل الفرد فى المجتمع الحديث يشعر بأنه مسير لا مخير .. هو مسير إلى حيث لايعلم فالحروب والأطماع تتنازع العالم فى هذا العصر كما لم يحدث فى تاريخ البشرية من قبل . إذ أن الحروب والأطماع لم تعد لها حدود بعد أن أصبح العالم الشاسع مجرد قطعة أرض ضيقة يختلط فيها الحابل بالنابل .. يعيش كل من فيه برغم ارادته فى صراعات مادية وفكرية لا يعرف لها نهاية .. لا يملك غده لأن يومه نفسه مرهون بارادة الآخرين الذين لا يعرفهم ولم يرتكب فى حقهم إثما .

لقد فقد إنسان العصر الحديث مقومات النجاح الداخلى لأنه لم يعد يفكر بنفسه لنفسه . أصبح فكره مصنوعا جاهزا معدا للاستعمال ولا يكلفه الحصول عليه سوى أن يقرأ الصحف أو يستمع إلى الاذاعة أو يشاهد التليفزيون . فالإنسان يفكر من خلال المسئولين عن الاعلام والثقافة . ويظن أن هذا هو فكره الأصيل لأنه لا يدرك أنه صنع له من قبل وتشربه دون أن يدرى .. فالآخرون يختارون للإنسان الاتجاه الفكرى ويجعلونه يفكر فيما يفكرون هم فيه وبالأسلوب الذى يفكرون به . وبذلك يصبح لا حديث له طوال اليوم إلا فيما تشغله به وسائل الاعلام والثقافة . فهى وسائل تفكر بالنيابة عن إنسان العصر الحديث . ومهما كانت نوعية هذا الفكر ، مهما انحط ومهما ارتفع فهو فى النهاية ليس فكره .

هذا الفكر كفيل بالقضاء على أى استقلال ذاتى للإنسان ، لأنه يجعل الناس جميعا صورا متكررة لمن يقفون وراء وسائل الاعلام . فهو فكر مصنوع لكى يباع بالجملة فى أسواق العقول و لأكبر عدد ممكن من الناس .. وهذا لا يحدث فقط فى مجال الاعلام بل فى المدرسة والجامعة حيث يلقن المعلمون الطلبة الذى يستمعون إلى نفس المحاضرات بالجملة أيضاً ، وعليهم فى الامتحان أن يعيدوا ما قالوه لهم ، كما قيل بلا زيادة أو نقصان . وبالتالى فأن المقياس الوحيد للنجاح فى الحياة والمجتمع هو المقياس الذى اتفق عليه الآخرون ، وأى مقياس مخالف له يصبح الفشل بعينة .

أن روح القطيع هى أقسى ما يمكن أن يدمر الاستقلال الذاتى للإنسان ، وعليه يمكن أن يدّمر البنيان الفكرى للأمة لأنه يعجزه عن التطور والتجديد الخلاق . فعندما يتحول الإنسان إلى مجرد فرد من أفراد القطيع ، يتحرك معه لكنه لا يعرف إلى أين ولماذا يتحرك أصلا ، فهو بهذا يفقد القدرة على التفكير الأصيل النابع عن كيانه وذاته . فالقطيع كفيل بأن يصنع له كل الأفكار التى يمكن أن يتشدق بها فيما بعد كما لو كانت أفكاره الخاصة .به ، وإذا أصابت روح القطيع إنساناً فإنه يتوقف عن التفكير ويستريح من عنائه طالما أن الآخرين

يقومون بهذه المهمة نيابة عنه ، وبهذا تقضى روح القطيع على
كل ملكات الابداع والابتكار والأصالة عند الإنسان .
فلا يكفى أن يكون لدينا عقل سليم كما يقول الفيلسوف
الفرنسى رينيه ديكارت : بل ينبغى أن نستخدمه استخداما
سليما .وإذا كان هناك اختلاف بين الناس فى مستوى الذكاء
فلا يرجع هذا إلى تفاوت فى ملكاتهم وانما إلى اختلاف المناخ
الفكرى الذى يتأثرون به .

٣

وإيمانى بالنجاح الداخلى لا يعنى أنه دعوة إلى مبدأ « خالف تعرف » الذى يغرى الإنسان بمعارضة الآخرين لمجرد المعارضة وحب الظهور . فهذا المبدأ أبعد ما يكون عن الاستقلال الفكرى للإنسان ، ولا يقل فى أثره الضار عن روح القطيع التى تقضى تماماً على الكيان الفكرى للفرد . فاثبات الذات لا يتأتى عن طريق المعارضة من أجل المعارضة ، بل ينبع من وضع الأمور فى نصابها من خلال نظرة موضوعية قادرة على التصدى للآخرين بشجاعة إذا ادركت أن الصواب قد جانبهم .

يتناقض مفهوم النجاح الداخلى للإنسان مع روح القطيع تماماً لأنها تتسلل إلى كل أغوار نفسه وخاصة إذا لم يكن الإنسان يقظاً تجاهها . فإذا طبقنا هذا على حياتنا اليومية فسنجد أن هذه الروح تشكل تفكير وسلوك معظمنا وإلى حد كبير . فمثلا نجد إنسانا ليست له أية اهتمامات بكرة القدم . ولكنه يجد جميع من يحيطون به يتحدثون ليل نهار عن آخر مباريات

الدورى والكأس كما لو كانت قضية حياة أو موت بالنسبة لهم . وفجاة يدرك وضعه الشاذ بينهم لأنه لا يشاركهم اهتماماتهم على الأقل ، وبدلا من أن يهدىء من هذا التيار السطحى الجامح حوله نجده ينجرف مختارا . وبعد ذلك يتحول إلى أشد المتعصبين لكرة القدم وتصبح شغله الشاغل ليل نهار ، بل انه غالبا ما يتطرف عن الباقين فى حماسه لكى يظهر لهم أنه لا يقل فى وعيه الكروى عنهم فى شىء بل ويتفوق عليهم وبذلك تنتقل الحمى من شخص إلى آخر حتى تتحول فى نهاية المطاف إلى هوس وجنون . وما ينطبق على كرة القدم ممكن أن ينطبق على شتى مناحى الفكر والحياة ، مثل الحماس دون مبرر قومى وفكرى للمبادىء السياسية المستوردة ، والأفكار الاجتماعية المدسوسة ، والتحريفات المتعمدة لجوهر الدين العظيم ..الخ . تلك هى احدى النتائج المدمرة لفقدان الفرد لاستقلاله الذاتى . وهى نتيجة طبيعية للجهل والسطحية والخواء الذى يعانى منه الإنسان داخله عندما لا يشعر بأى اهتمام نابع من ذاته . وهذه ظاهرة حتمية لأن الطبيعة تأبى الفراغ . والبشر جميعاً يشتركون فى عدم المقدرة على تحمل هذا الفراغ . فإذا كان الإنسان من النوع الذى لا يهتم بتثقيف نفسه وانضاج فكره باستمرار فلاشك أنه سيشغل الفراغ داخله بكل التفاهات التى يقابلها فى حياته اليومية فالثقافة سلاح خطير موجه أساساً ضد روح القطيع ، لأن المثقف

الأصيل يحترم كيانه الفكرى عن طريق رفض الأفكار التى لا يقتنع بها هو شخصياً ، مهما كان عدد الذين يعتنقون هذه الأفكار . فالمسألة ليست مسألة أغلبية ولكنها مسألة اقتناع وتفكير موضوعى بصرف النظر عن النعرات المؤقتة . لكن التفكير الموضوعى المخالف لرأى الأغلبية غالباً ما يقابل منها بالاستنكار والهجوم لأنها تعتبره خروجا عليها . لهذا يتميز موقف المثقفين الأصلاء بالصعوبة والحرج فى بعض الأحيان ، ومع ذلك يستمرون فى اتجاههم بسبب إيمانهم بدورهم الريادى فى تفتيح أذهان الناس وأبصارهم التى لا ترى أبعد من مواطىء أقدامهم . وفى المجتمعات التى تصل فيها روح القطيع إلى أخطر درجاتها ، تتحول شخصية المثقف المفكر إلى مثار للسخرية والتهكم لأن وجوده وسط القطيع يتحول إلى نغمة نشاز أو عنصر قلق يسلب أفراد القطيع راحتهم فى النعاس والنوم واجترار أحلام اليقظة التى لن تتحقق ، ولذلك يسارع أفراد القطيع إلى الدفاع عن أنفسهم بالسخرية منه حتى لا يفكر أحد فى أن يحذو حذوه .

هنا تبرز ضرورة الصلابة والصمود والاصرار والإرادة الذاتية التى تعد الأساس الحقيقى للنجاح الداخلى .. فإذا أصر الإنسان الأصيل على مواجهة روح القطيع بالموضوعية الفكرية الواضحة المحددة ، فإنه يمكن أن يخلق تيارا فكريا جديدا يضم إليه كثيرين من المقتنعين به . وبذلك يجدد الحركة الفكرية داخل المجتمع ويكثر من قنواتها بدلا من سيرها فى قناة واحدة .

عندئذ سيشعر الإنسان أن اقتناعه بذاته ونجاحه الداخلي قد انتقل إلى الآخرين ، وبذلك فانهم يستفيدون من تجربة إنسانية خصبة أصيلة بدون أن يمروا فيها بمراحل المحاولة والخطأ .

ان النجاح الداخلي للإنسان مرتبط أساساً بضميره ، فإذا تبعه النجاح الخارجي كان بها . وإذا لم يتبعه كان بها أيضاً . فيكفي استمتاع الإنسان براحة ضميره وتوافقه مع نفسه . أما النجاح الخارجي الذي يراه الآخرون ويعجبون به فكثيراً ما يتنافى مع القيم الأخلاقية والمثل العليا لأن الناس لا يرون سوى الظاهر . ومن الممكن أن يرتكب الإنسان أبشع الرذائل في سبيل أن يحقق الجاه والثراء ، لكن الآخرين لن يروا سوى الجاه والثراء .. فالأخلاق الإنسانية الرفيعة تتنافى تماماً مع مبدأ ماكيا فيللي الذي ينادي بأن الغاية تبرر الوسيلة فهناك فرق شاسع بين النجاح الداخلي والنجاح التجاري .. ولقد استوعبت هذا الدرس من عملي في السوق والأعمال الحرة .

٤

كان من سوء طالعى أن اشتغلت فى فترة من فترات حياتى فى السوق ، وكنت وقتذاك أجرى وراء لقمة العيش لى ولأسرتى .. وحين أعود بذاكرتى اليوم إلى تلك الأيام وإلى من تعاملت معهم أذهل واعجب لهذا الموكب العجيب الذى عشت فيه سنوات تعلمت فيه أن أكره السوق ومعاملات السوق وتقاليد هذا السوق .. اننى لا أنكر أننى صادفت أناسا أطهارا شرفاء مازالت تربطنى بهم صداقات ومودات . ولكننى إلى جانب هؤلاء بلوت كثيراً من ذلك الطراز الذى لا يعرف فى معاملاته إلا المساومة وإلا اللف والدوران . يكون حقك ظاهرا ومثبوتا ومكتوبا ولكنك تصدم حين يجابهك هذا الطراز الممقوت من رجال السوق بالتجاهل والانكار . والأعجب من ذلك أن هذا الطراز يؤمن فى قرارة نفسه بحقك ويعلم تماماً ما يجب أن يؤدية ، لكن عوامل الشره والأنانية تصور له أنه يستطيع أن يكسب منك بطول المحاورة وبكثرة المداورة ما يرضى جشعه ويروى أنانيته .

كنت أفكر وأنا أتعامل مع هذا الطراز ، لا لاقنعه بوجاهة حقى وسلامة موقفى وشرف مقصدى ، وإنما كنت أفكر كيف أستطيع أن أنبه مثل هذا المخلوق إلى أن مسلكه فى الحياة يجرده من الإنسانية ويجرده من الشرف ، فقد يستطيع أن يكسب بالمحاورة والمداورة . دريهمات ولكنه سيخسر فى النهاية شرفه وضميره ، وستكون أنانيته وجشعه خير وسيلة لكى ينبذه الناس فلن يقبل أحد أن يتعامل معه أو يصادقه لأنه انحط بغرائزه إلى أسفل سافلين . ولم أجد إلا حلا واحدا للتعامل مع مثل هؤلاء المخادعين هو الصلابة والصمود فى قوة وراء الحق مهما كان الثمن .

وتركت السوق إلى السياسة وفى السياسة صادفت هذين النوعين لا فى الأشخاص ولكن فى الدول التى تبرر الغايات بالوسائل . ان الغايات فى تقديرى لا يمكن أن تنفصل عن الوسائل وهذه حقيقة لا يدركها إلا الإنسان الذى بلغ مرحلة اليقين لأنه ليس على استعداد أن يحقق نجاحا يرضى عنه الآخرون بينما لا يرضى هو عن نوعية الوسيلة التى أدت به إلى مثل هذا النجاح . ويكفى أنه سيفقد السلام الروحى والتوافق الذاتى داخله ولذلك ستكون خسارته أعظم من أى مكسب مادى حصل عليه .

ولى تجربة شخصية مع عبد الناصر على مدى ١٨ سنة من العمل السياسى .

كانت شخصية عبد الناصر أسطورة ضخمة لها من الآثار والأبعاد مالا يمكن حصره فى هذا المقام .. واستطاع أن يقدم للأمة العربية الزعامة التى طال انتظارها لها . وعشت بجانب عبد الناصر طوال هذه الفترة دون أن أشعر بأى قلق أو ضيق . وهذه من الأشياء التى طالما سألنى عنها كثيرون من الناس . خاصة عن السر فى أنه لم يحدث أى خلاف بينى وبينه وذلك على النقيض من الزملاء الآخرين الذين اختلفوا معه وتركوا له الحلبة تماماً والحقيقة أنه ليس هناك ثمة سر على الاطلاق ، فقد دفعنى إيمانى بالنجاح الداخلى إلى رفض التكالب وراء أى منصب أو وظيفة أو جاه .

اقنعنى إيمانى بذاتى واستقلالى بفكرى أننى أكبر من أى منصب أو وظيفة أو جاه وعلى ذلك ليس هناك مجال لكى أخوض أى صراع من أى نوع كان . فليست لى مطالب شخصية ويكفينى أن حلمى الازلى بقيام الثورة قد تحقق وأصبحت قيادتها فى يد زميل الشباب وصديق العمر .. ومادام الاحترام المتبادل هو الأساس الذى نهضت عليه صداقتنا فلا مجال لأية معارك شخصية بيننا . ولكن هذا لا ينفى وجود اختلافات بيننا فى الوسائل والأساليب .

من المعروف أن كل إنسان على وجه هذه الأرض يختلف عن الآخر اختلاف بصمات الأصابع . سواء فى البيئة أو العائلة أو النشأة أو التربية أو التعليم أو الثقافة . وهذا الاختلاف

الطبيعى لا يتعارض مع الزمالة أو الصداقة . ومن السذاجة وقصر النظر أن نطلب من إنسان أن يتحول إلى نسخة باهتة من إنسان أخر مهما كان حبنا واحترامنا لهذا الإنسان ولذلك دهشت من المغرضين أو المرتزقة الذين طالبونى أن أسير بنفس الأساليب التى أتبعها عبد الناصر لأن المسألة هى مسألة غاية وليست مسألة وسيلة .

كم كانت لى جلسات طويلة مع عبد الناصر سواء فى بيته أو فى بيتى واستمرت هذه الجلسات حتى قبيل وفاته .

وكان عبد الناصر مدركاً ومتقبلا لاختلافى معه فى الأساليب والوسائل . وقد اقتضت الحكمة الا أذيع شيئاً عن هذه الخلافات لأننى لست من هواة المناورات والصراعات واستعراض العضلات . ولأننى كنت مؤمنا بأن عبد الناصر قادر دائماً على التصرف ، ومادام هذا هو إيمانى واقتناعى فلا ضرورة لمشكلات أنا فى غنى عنها أيضاً فإن مشكلة الحكم تقتضى وجود رجل مسئول مسئولية أخيرة وتاريخية عن اتخاذ القرارات المصيرية والحكم بعد ذلك للشعب له أو عليه وذلك عن طريق تقييم قراراته .

لعل أكبر اختلاف فى جوهرى بينى وبين عبد الناصر أنه كان يسعى دائماً وراء بريق النجاح الخارجى الذى تمثل فى الدعاية الضخمة والاعلام الملتهب باستمرار . لذلك صور له البعض من مراكز القوى أن افتعال المعارك المستمرة يجعل

الضجة عالية وصاخبة على كل ما عداها من نغمات وأصوات . أما أنا فإيمانى بالنجاح الداخلى قد منعنى من خوض أية معركة إلا إذا كانت مصيرية وحاسمة من أجل مستقبل مصر وبصرف النظر عن أى دلالات اعلامية أو دعائية . خط مصر السياسى والفكرى قوى وثابت طريق المستقبل واضحا ومحددا فلا ضرورة اطلاقا لقرع الطبول التى تصم اذاننا قبل أى آذان أخرى .

ولعل هذا الضجيج السياسى كان يتمشى مع طبيعة عبد الناصر الذى كان يعيش دائماً على أعصابه .. فقد كانت حياته عبارة عن وتر مشدود طوال الأربع والعشرين ساعة . وفى الواقع لم يكن عبد الناصر يفتعل هذا الجو المتوتر الصاخب على سبيل إحاطة الحكم بالهيبة اللازمة ، بل كانت هذه طبيعته سواء قبل الثورة أو بعدها .. منذ أن خطط للثورة ، وبعد أن أصبح عضو مجلس قيادة الثورة ، ثم رئيسا له حتى تولى رئاسة الجمهورية . كانت طبيعته المتوترة سمة أساسية فى تكوينه منذ العشرين من عمره ولم يستطع التخلص منها بل يبدو أن أعباء الحكم ومسئولياته قد ضاعفت من حدتها .

وجعلت هذه الطبيعة المشدودة الاقتراب منه شيئاً ليس بالسهولة التى تخطر على بالنا فقد صنع هذا الجو المتكهرب حاجزا صلبا بينه وبين الآخرين ، لذلك لم يكن لعبد الناصر صداقات بالمفهوم البسيط لمعنى الصداقة . أما صداقتى له

فكانت تعتمد على قيمة إنسانية كبيرة من القيم التى شكلت حياتى منذ الطفولة . هذه القيمة هى الوفاء الذى تعلمته فى القرية والذى كان النبع الرئيسى الذى أمدنى بالسلام الروحى والنجاح الداخلى . وهما العنصران اللذان بدونهما لا يمكن أن يكون الإنسان منطقيا ، سواء مع نفسه أو مع الآخرين . لذلك تجنبت كل مظاهر الصراع أو الحقد أو الغيرة التى حاول الآخرون الادعاء بوجودها بينى وبينه وهذا يفسر ردى على السؤال الذى ووجهت به أثناء أول زيارة لى لفرنسا بعد أن توليت المسئولية . كان السؤال « هل أحس بالغيرة كلما ذكر إسم جمال عبد الناصر أمامى مثلما كانت الغيرة تنهش بومبيدو كلما ذكر اسم ديجول فى حضرته » ؟ .

أجبت على السؤال بقولى : لم أشعر بهذه الغيرة اطلاقا ، لأن جمال كان زميلى وصديقى وأخى ، وكانت ثقتى فيه كاملة ومطلقة . ومهمتى الآن لا تتيح لى الانشغال بمثل هذه الأحاسيس العابرة السطحية ، إذ أننى منهمك فى اكمال وتصحيح المسيرة التى بدأها عبد الناصر عن اقتناع وعن إيمان .

٥

لعل إيمانى بالنجاح الداخلى يرجع إلى طبيعتى الريفية الهادئة التى علمتنى أن أتجنب كل ما من شأنه أن يوتر أعصابى بقدر الإمكان ، ولكن مع الاصرار الموضوعى لتحقيق الهدف المنشود . فأنا أحدد دائماً ما أريده وما لا أريده . لذلك فأنا مرتاح نفسياً وعصبيا لأننى لا أعلق حياتى بأمل قد لا يتحقق ولا أخاف من طريق قد يصبح مسدودا ، لأننى أضع فى اعتبارى دائماً طرقا عدة تؤدى إلى نفس الهدف . ولا يهمنى الدعاية التى اكتسبها أو لا اكتسبها وأنا فى طريقى إلى تحقيق هدفى طالما أننى مقتنع داخليا بالوسيلة التى أستخدمها لبلوغ الهدف ، لأنه غالبا ما يتبع النجاح الخارجى النجاح الداخلى بعد أن يقتنع به الجميع عندما يتحول إلى حدث مادى لا يستطيع انكاره أحد .

ولقد علمنى النجاح الداخلى أن الدعاية ليست سوى صورة اعلامية لما يجرى بالفعل . ومهما تضخمت الدعاية السياسية وارتفع ضجيجها فلن تزيد من حجم أو وزن أو تأثير

العمل السياسى الذى يجرى على أرض الواقع . بل ان الخطورة تبرز عندما يكتشف الناس أن الدعاية كانت جعجعة بلا طحن ، عندئذ يفقد الناس الثقة تماماً فى القيادة كما حدث فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وقد أستوعبت هذا الدرس تماماً فى اعدادى لمعركة أكتوبر ١٩٧٣ فعلى الرغم من الضغوط الخارجية والتمزقات الداخلية التى حاولت تشوية صورتى والتشكيك فى أى عمل أقوم به . لم أحاول أن أشحن الأمة بدعاية مضادة ، بل اعتبرت أن هذه كلها فقاقيع لن تلبث أن تتلاشى بمجرد البدء الفعلى لمعركة العبور والتحرير . وقد كان . وتغير العالم كله بعد أكتوبر واكتسبت مصر من الدعاية العالمية ما لم تكن تحلم به فى يوم من الأيام .

كان أروع انجاز فى معركة أكتوبر أن نجاحها الخارجى كان قائماً أساسا على نجاح داخلى قائم على الإيمان واليقين ووضوح الرؤية ، والثقة بالنفس . ولذلك مازالت موجات هذه المعركة الخالدة تتدافع على شواطىء بلاد العالم كله دون استثناء .

إن النجاح الداخلى هو الركيزة الحقيقية لكل الانجازات الإنسانية سواء على المستوى الذاتى الخاص أو المستوى القومى العام . من هنا كان أملى فى اعتناق أولادنا لهذا المبدأ الذى يؤكد أن النجاح الخارجى الذى يلهث خلفه الجميع ليس سوى الواجهة الظاهرية للقيمة الإنسانية العظيمة المتمثلة فى النجاح الداخلى .

الفصل التاسع

الانفتاح : عمالة وإنتاج

١

من الخطأ أن نظن أن الانفتاح سياسة جديدة على مصر .. فموقع مصر الجغرافى فى ملتقى ثلاث قارات .. أى فى بؤرة العالم تقريبا ، يجعل الانغلاق سياسة تتنافى تماماً مع طبيعتها الجغرافية ، وموقعها الحضارى ، وتراثها التاريخى .. فمصر هى البلد الذى منح العالم كله أول حضارة ولا يعقل أن ينغلق على نفسه بلد معطاء مثل مصر .. وحتى إذا لم نتوغل فى تاريخها العريق الضارب فى القدم إلى مدى سبعة آلاف عام فسنجد أن مصر كانت أول بلد فى المنطقة العربية والأفريقية ينفتح على الحضارة العالمية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبذلك كانت أول من حطم الجدران الكئيبة التى حاصرت بها الامبراطورية العثمانية العالم العربى والإسلامى لمدة تزيد على أربعة قرون .. لقد سافر رفاعة الطهطاوى وغيره من المثقفين والمفكرين المصريين إلى عواصم الحضارة الأوروبية تطبيقا لسياسة الانفتاح التى بدأها محمد على لكى يقيم فى مصر دولة

عصرية بمعنى الكلمة طبقا للتعبير الذى كان سائدا فى تلك الأيام .

ومصر بطبيعتها وشخصيتها القومية المتبلورة لا تخشى الانفتاح على الآخرين لأنها تملك من المناعة الحضارية ما يجعلها فى مأمن من أى غزو فكرى من شأنه أن يميع شخصيتها أو يمحوها .

والأمم التى تفرض على نفسها ستارا حديديا مصابة أساساً بالرواسب ومركبات النقص التى تجبرها على التقوقع بعيدا عن تيارات الحضارة التى تخشى أن تجرفها دون أن تملك لنفسها إرادة . وبخاصة أن الانفتاح ليس انفتاحا اقتصاديا فحسب بل له من الجوانب الاجتماعية والفكرية والثقافية ما يعمل باطراد على تطوير المجتمع ومساعدته على مواكبة روح العصر .

وإذا لم تكن شخصية الأمة متبلورة قوميا فمن المحتمل بل من الممكن أن تدخل فى فلك الآخرين وتصير من الأتباع والذيول . لكن شخصية مصر الحضارية ذات السبعة آلاف سنة لا يمكن أن تخشى غزو الآخرين الذين استقوا حضارتهم أصلا منها .

والانفتاح الاقتصادى يمثل الخطوة المادية الأساسية الأولى لما يتلوه بعد ذلك من خطوات .. وفى عصرنا الحديث أصبح الانفتاح الاقتصادى من أهم المبادىء التى ينهض عليها الاستقرار الاقتصادى وخاصة أننا فى عالم قصرت فيه المسافات

إلى حد مذهل .. وتقاربت البلاد وتشابكت المصالح بحيث أصبح الاكتفاء الذاتى من ملامح عصور مضت ولن تعود . ونحن ندرك هذه الحقيقة جيدا فى مصر خاصة بعد التجربة العملية التى خضناها فى حرب أكتوبر المجيدة ووجدنا أن أسعار السلع فى جميع أنحاء العالم بدون استثناء قد تضاعفت . وهذا أكبر دليل على أن العلاقات الدولية أصبحت متشابكة إلى الدرجة التى صار فيها الانفتاح سياسة حتمية يجب الاستفادة منها بكل الطرق الممكنة .

إن الصمود الاقتصادى هو جسر العبور من التخلف والقصور والجمود الذى فرض علينا إلى التعمير والتنمية والانطلاق ، ارتفاعا بمستوى الشعب . ولذلك لا يقل الصمود الاقتصادى أهمية عن الصمود السياسى والعسكرى إزاء القوى التى علينا أن نواجهها بكل حزم وثبات وانتباه .. فالأمم يقاس حظها فى تحقيق أمانيها .. وتقاس قدرتها فى التأثير على مصائرها باستقرارها السياسى ، وقوتها العسكرية ، وسلامة موقفها الاقتصادى . وإذا كان الانفتاح يدعم الموقف الاقتصادى فإنه يدعم الموقف السياسى أيضاً لأن الاقتصاد والسياسة لا ينفصلان . فلا يمكن أن يعيش الشعب مستقرا إذا كان قلقا على رزقه ، قلقا على مستقبله . قلقا على قيمة ما لديه من نقود وما يتاح له من سلع وخدمات .

والاضطراب الاقتصادى من أعتى مشكلات هذا العصر

حتى بالنسبة للبلاد المتقدمة . فإذا كانت البلاد النامية تقاسى من التخلف الاقتصادى والمجاعات الفعلية فإن البلاد المتقدمة تعانى من التضخم والبطالة الرهيبة . وتلك أحد أمراض عصرنا ومتناقضاته أن تمرض فيه شعوب من التضخم ويموت فيه ملايين من الجوع . ولقد نجحنا حتى الآن فى عدم الوقوع فى مهاوى هذا الاضطراب الاقتصادى الشامل . وهو انجاز لا يقل عن معجزة ، خصوصاً فى ظروف بلد حارب وقاسى وتحمل الدمار ويتحمل الآن أعباء إعادة البناء .

لقد تحقق هذا لنا بفضل قاعدة الصناعة الكبرى التى أقامتها ثورة ٢٣ يوليو المجيدة وبفضل ما أنجزته الثورة من توسيع قاعدة العدالة الاجتماعية ، ما نعمل على الأخذ به من مظلة التأمينات إلى أكبر قطاعات ممكنة . والاستمرار فى سياسة العمالة الكاملة ، وتحمل الأعباء الجسام للاحتفاظ بأسعار السلع الأساسية خاصة المتصلة بقوت الجماهير . كما تحقق هذا بفضل استبسال قواتنا المسلحة التى حققت لنا النصر وجعلت العالم ينتبه إلى أهميتنا ودورنا ويتسارع إلى التعامل معنا والانفتاح علينا .

لكن حركتنا من أجل إنجاز العبور الاقتصادى إلى البناء والتقدم جاءت على موعد مع هذا الاضطراب الاقتصادى العالمى وما يجلبه من مخاطر هائلة . وهذا أمر يضاعف من أعبائنا ومسئولياتنا . فإننا مهما بذلنا من جهد فلا يمكن أن نفلت

من التأثر ولو بدرجة ما ، من هذه الظروف العالمية . مادمنا لا نقيم حول بلادنا ستارا حديديا . ومادمنا محتاجين أن نشترى من الخارج كميات ضخمة من الأغذية والآلات والأسلحة على حد سواء .

وقد يكون من السهل رفع الصوت بالمطالبات وقد يبدو مغريا للبعض أن يصرخ مطالبا بإنجاز كل شيء وإصلاح كل شيء والقضاء على كل نقص بين يوم وليلة وقد ننزلق دون أن ندرى إلى حلقة مفرغة من السباق بين الفئات والهيئات فى المطالبة بالحقوق وبغض النظر عن حق الوطن كله وحقوق سائر فئات الشعب فيما نملك وفيما هو متوافر لدينا . ولكن أى شيء من هذا خليق أن يفسد أكثر مما يصلح . ويضر أكثر مما ينفع وقد تحل اليوم مشكلة لكى يوجد فى الغد عشرة أمثالها من المشاكل .

٢

إن الانفتاح الاقتصادى لا يعنى عدم إدراك أخطار هذه الدعوات السهلة فى لغة الكلام فلا شك أن هذه الأخطار تبرز فى أبشع صورة عند التطبيق والتنفيذ . وعلينا أن نلاحظ أن ثمة عدة اعتبارات كبرى تؤثر فى تحركنا الاقتصادى .

أولا : ضرورة الحصول على السلاح وكل ما يتعلق به من تكاليف . فالسلاح لا يتساقط مطرا علينا . وإذا كان الأخوة العرب قد ساعدوا حينا فى هذا المجال مشكورين فإنه يجب أن نعلم ويعلم أيضاً إخوتنا العرب أن الجزء الأكبر من العبء كنا ومازلنا ندفعه نحن من عرقنا وكدحنا وحرماننا .. وأننا نفعل ذلك أداء لواجب أسمى نحو أنفسنا ونحو الأمة العربية جميعاً .

ثانياً : التضخم العالمى وزيادة أسعار كل ما نستورده كما ذكرت مع حرصنا على الاحتفاظ بمستوى السلع الأساسية . فرغيف الخبز مثلا الذى يباع بنصف قرش يكلف الخزانة العامة بعد الأسعار العالمية الأخيرة (عام ١٩٧٧) خمسة قروش

وهذا ينطبق على كل شيء من مواد البناء إلى آلات المصانع وقطع الغيار .

ثالثاً : أن زيادة السكان عندنا مازالت تسجل معدلا شديد الارتفاع . فالسكان فى مصر تضاعفوا منذ الثورة وأصبحنا الآن نزيد بمعدل مليون نسمة كل عام وهذا يعنى زيادة بالطبع فى استخدام المرافق ، وزيادة فى مصاريف الدراسة وفى تشغيل الخريجين من المدارس والمعاهد والجامعات . ولابد أن تخصص مجالات التنمية ما يسبق هذه الزيادة الضخمة فى الاستهلاك بغير هذا لا يرتفع مستوى المعيشة لمجموع المواطنين .

رابعاً : إننا كما نقيم الجديد فى مجالات التنمية والإنتاج فإننا نواجه ضرورة إصلاح القديم واستكمال النقص وبوجه عام تعويض كل ما تجمد أو تأخر طوال سنوات النكسة السبع .

يعنى هذا أنه لابد لنا من التفكير فى الأولويات الحيوية .. هناك أولوية إعادة الطاقة الكاملة لكل مرافقنا التى هبطت طاقتها إزاء أعباء المعركة .. هناك أولوية العمل بإصرار على زيادة الإنتاج بأسرع ما يمكن أن يزيد به الاستهلاك . فالدرس الأعظم من ظروف عالم اليوم فى المجتمعات الغنية والمجتمعات الفقيرة على السواء هو أن زيادة الاستهلاك على الإنتاج معناه الأزمة والافلاس . وإن زيادة الإنتاج مع التضحية مؤقتا بزيادة الاستهلاك معناه التقدم والرخاء القائم على أساس علمى متين .

وإذا كان من حق الشباب المثقف المتعلم المطالبة والحساب فإن من واجبه أيضاً الارتفاع عن مستوى المصالح الضيقة لفئة أو لمنطقة إلى مستوى مصالح الشعب ولكل الأوقات . ومن واجب الشباب أيضاً بحكم ثقافته ووعيه أن يخاطب الشعب الذى نبع منه ويشرح له حقائق الأمور ، ويبصره بالسياسات التىَ نؤمن بها جميعاً . أن كل واحد من الشباب حين يناقش قضية ما ، أن يحس بمطالب الشعب من جهة وأن يضع نفسه موضع المسئول من جهة أخرى ، يفكر معه ويدرس معه ويقترح الحلول معه . بهذا يقوم الشباب بدوره الواعى بدلا من أن يقتصر دوره على انتظار تعيين القوى العاملة بعد تخرجه ثم التبرم بالمرتب الضئيل الذى يحصل عليه . هذا التبرم يرجع إلى أن الشباب إلى الآن لم يدرك مرحلة ما قبل الثورة حين كان التعليم الجامعى مقصورا على طبقة معينة ، وبعد التخرج يمكث الخريج عاطلا سنوات عديدة حتى يحصل على وظيفة يرزق منها .

٣

أننا الآن نضع سياسة الانفتاح كاملة موضع التطبيق دون قيد سوى أن يؤدى المواطن للدولة حقها الذى تنص عليه القوانين فيقترن توفير الحافز بإقرار الواجب المترتب عليه . فلابد ونحن نطلق الحريات وندعو إلى الانفتاح أن يكون للقانون هيبته ، وللمال العام حرمته وللمرافق والخدمات نزاهتها . وهذا يتطلب التأكيد دائماً على الطهارة الثورية شرطا لتحمل المسئولية ومزاولة أى نشاط ، فلا يكون هناك انحراف أو استغلال غير مشروع ، وذلك بترشيد الأجهزة وتوحيد جهات الرقابة والأخذ بالسرعة والحزم فى الثواب والعقاب على السواء .

ولكن لن يتحقق الانفتاح ، ولن نشعر بآثارة العملية فى حياتنا اليومية إذا لم نتخلص فعلا من الروتين ، والتعقيدات المكتبية ، والبيروقراطية الإدارية ، والقوانين واللوائح التى لم تعد تجارى الزمن .. فنحن لم نتقدم على طريق إزالة هذه العقبات كثيرا . ومادامت موجودة ، فلا نلوم موظفا عاما إذا عاش وتصرف أسيرا لها ، محكوما ومقيدا بها . وهنا يتحتم البدء فوراً

فى تجديد شباب القوانين واللوائح ، والعمل الحقيقى من أجل سرعة إصدارها ، بعد أن ظهر أن الكثير مما نسميه اختناقات مرجعها هذه النصوص والأحكام التى لم تعد تجارى الزمن ولا تلبى متطلبات العصر . فلا يعقل أن نبذل أقصى ما فى وسعنا لكى نجلب رؤوس الأموال الأجنبية لتوظيفها داخل مصر ثم تقف القوانين واللوائح كعقبات مستحيلة فى طريقها فيكون النتيجة أن تهرب مرة أخرى إلى خارج مصر ، إلى بلاد لا تخضع لهذه اللوائح البالية .. إننا بدون حل المشكلة الإدارية سندخل فى دائرة مفرغة كفيلة بأن تجعل من الانفتاح مجرد لافتة مرفوعة أو شعار على الورق .

ويهمنى أن أنبه هنا أن الانفتاح ، لا يعنى إطلاقاً إلغاء القطاع العام تدريجا وإطلاق يد القطاع الخاص فى عمليات الإنتاج . فهذا ما يروج له المغرضون من دعاة الانغلاق والعودة مرة أخرى إلى الستار الحديدى الذى عشنا داخله ١٨ عاما بدون أى مبرر من مبررات علم الاقتصاد . إن القطاع العام هو القاعدة الأساسية فى البلاد سواء فى مجال الإنتاج أو الخدمات وسواء على المستوى الزراعى أو الصناعى . وعلى الرغم من السلبيات التى تعترض الأسلوب الذى يعمل به ، فإنه يعود على البلاد بحوالى ألفى مليون جنيه سنويا . وقد قام القطاع العام بدور تاريخى لا يمكن إنكاره فى سنوات الهزيمة السبع (١٩٦٧ — ١٩٧٣) فقد عمل على توفير معظم السلع الاستهلاكية اللازمة لمجتمعنا .

ولكننا عندما ندعو إلى تطوير القطاع العام فأننا نهدف إلى تخليصه من السلبيات التى تعوق إنتاجه على الوجه المرجو وذلك إيماناً منا بقدرة الإنسان المصرى على البناء وكفاءته التى يدل عليها ارتفاع مستوى تدريبه ، ومدى طاقته فى المساهمة الفعلية فى هذه الخطة . لهذا نعمل الآن على استخدام مواردنا الاستخدام الأمثل ، خاصة أن لدينا الكثير من الموارد المتاحة ، والتى يمكن أن تعطى العائد الكبير بشرط مواكبة الثورة الإدارية لها وبناء الإنسان المصرى بناء سليما متينا ، وهذا لن يتأتى إلا بالتوسع فى التدريب الفنى وإعادة الاحترام إلى قيمة العمل اليدوى الذى لا يقل بل يزيد فى قيمته كثيراً عن العمل المكتبى الذى أصاب حياتنا بالعقم .

والمدخل الرئيسى إلى تطوير القطاع العام يتمثل فى إطلاق حرية الوحدات العاملة فيه بشرط أن تكون هناك هياكل وظيفية واضحة بالنسبة للعمالة ، وأن يكون هناك موقف اقتصادى محدد بالنسبة للوحدات الصناعية أو الإنتاجية بحيث يمكن محاسبتها بالأسلوب السليم .

فسوف يؤدى هذا إلى حرية الإدارة ومرونتها وإلى إطلاق طاقات كل العاملين فى هذه الوحدات .

لابد إذن من إتاحة الحرية لكل وحدة من وحدات القطاع العام خاصة فى أسلوب الإدارة الذى تسير به شئونها .

بهذا وحده يمكن أن تكون مسئولة فعلا عن المساهمة فى

الاقتصاد القومى بدلا من أن تقف مشلولة أمام تنفيذ اللوائح العامة ذات النصوص الجامدة التى لا يمكن أن تحيط بكل تفاصيل العمل فى كل وحدة على حده . يضاف إلى هذا انتخاب جمعية عمومية لكل وحدة يكون من اختصاصها مراقبة وتتبع سير العمل ، ثم تعرض عليها الميزانية والانجازات التى حققتها أو التى لم تحققها ولماذا ؟ ومع تطبيق مبدأ الحساب بالثواب والعقاب بالنسبة للأهداف التى تحدد لكل وحدة من الوحدات الإنتاجية أو الخدمية ، ومدى قدرة العاملين فى هذه الوحدة على تحقيق هذه الأهداف ، يكون هناك نظام الحوافز المفتوح ، ونظام الأجور الذى يتناسب مع طبيعة عمل وإنتاج هذه الوحدة بصرف النظر تماماً عن التسعيرة التقليدية لشهادات العاملين ومؤهلاتهم .

٤

وقد تسببت فترة الانغلاق والستار الحديدى فى تعطيل الكثير من الأقسام فى الوحدات الإنتاجية ، نتيجة للقيود الاقتصادية والإدارية المفروضة على استيراد أو شراء مستلزمات إنتاجها بصفة مستقرة ومستمرة فلابد أن نتوقع دائماً أن هناك من الآلات مثلا ما يحتاج إلى التعديل والتجديد ، وإذا لم تكن قطع الغيار متوافرة فستضيع الطاقة والجهد والوقت بالاضافة إلى أننا نعانى من الفاقد من الطاقة البشرية فى نفس الوقت . ولذلك عندما نطلق حرية هذه الوحدات فلابد أن نوفر لها احتياجاتها لمستلزمات الإنتاج سواء بالنسبة لقطع الغيار أو رفع مستوى الأداء فى الطاقة البشرية . فإذا حققنا هذا طبقا للأوضاع الحالية . وبلا توسع فى وحداتنا الإنتاجية ، فمن الممكن أن نستثمر الوحدات القائمة فعلا بحيث نحصل على عائد يزيد ٣٠٪ عما نحصل عليه حاليا ، وذلك ببعض التحسينات التى لا تكلفنا فى عملية الاستثمار الكثير .

ويحتم علينا الأسلوب العلمى فى الإدارة الحديثة ألا نبدأ فى بناء وحدات جديدة قبل أن نستكمل مشروعاتنا التى لم تتم بعد . فيجب أن نستكمل تشغيل وحداتنا القائمة فعلا بأحسن أسلوب ممكن أن نشغله بها . فلن يزيد الإنتاج إلا بآتباع أساليب الإدارة الحديثة ، وباطلاق حرية هذه الوحدات ، ويرفع كفاءة العاملين فيها . وعلاوة على ذلك فقد حرص القرار الجمهورى الذى أصدرته بطرح بعض أسهم الشركات المشتركة فى الأسواق على أن تعرض على العاملين فى هذه الشركات للمساهمة فيها ثم بعد مرور شهر تطرح على المواطنين على أن تباع لهم فى الحدود المقررة بالنسبة لتملك أسهم الشركات المساهمة وهو مبلغ عشرة آلاف جنيه .

هذه الشركات شركات مشتركة فعلا .. أى أن هناك جزءاً يملكه القطاع الخاص فى هذه الشركات وهذا يساهم فى حل مشكلة السيولة المالية بالاضافة إلى توفير الحافز الاجتماعى الذى يتمثل فى شعور العامل بملكيته لبعض الأسهم فى الشركة التى يعمل بها . هذا الشعور يشكل نوعا من الانتماء إلى الشركة ، والحرص على زيادة الإنتاج وتطوير العمل بها .

وبالتالى يؤدى هذا إلى زيادة أرباح العمال . فالحافز الاجتماعى يمكن أن يكون له مفعول السحر فى نفوس العاملين

عندما يرون أن كل زيادة فى الإنتاج والخدمة سوف تعود عليهم شخصيا بالفائدة المادية الفعلية .

وبالنسبة للسلبيات التى تعترض أداء القطاع العام . فإنه يتحتم على الوحدات الخاسرة أن تقوم بتطوير نفسها حتى تصل إلى مستوى الجدية المعقولة من الربح بحيث لا تترك كنزيف مستمر تتحمل الدولة الأتاوات فيه . ودفع التعويضات إلى هذه الشركات . وهذه ضرورة ملحة لأن معدلات التنمية فى مصر مازالت دون الحد الأدنى بالنسبة للإنتاج . إنه من الممكن أن نمنح هذه الوحدات السلبية فى الإنتاج فترة تقوم فيها بسداد العجز وتطوير نفسها وإلا فسيصبح من المنطقى والطبيعى تصفية هذه الوحدات التى تشكل عبئا على الإنتاج القومى . بدلا من المساهمة فيه ، خاصة أننا نعانى من التضخم السكانى والاستهلاك المتزايد .

إن تطوير القطاع العام بالانفتاح لا يعنى تصفيته كما يروج دعاة الانغلاق والستار الحديدى . فبعد إنشاء هذه القاعدة الصناعية الضخمة ، وإرساء قواعد القطاع العام وتأصيل جذوره بحيث أصبح دخله يزيد على ألفى مليون جنيه فى العام يتضح لنا أن سياسة الانفتاح الاقتصادى وما تنص عليه من مشروعات مشتركة أو من جذب لرؤس الأموال العربية والأجنبية كمساهمة فى مشروعات التنمية ، هذه السياسة

لا يمكن أن تشكل أى مساس بقومية الإنتاج . فهذه المشروعات والأموال لا تؤثر بشكل ما فى إمكان سيطرة رأس المال الأجنبى على مقدراتناهذه ، لأن قاعدتنا الصناعية عريضة ودخلنا القومى كبير .

ومن الضرورى تحويل مجتمعنا من مجتمع استهلاكى إلى مجتمع إنتاجى عن طريق تنشيط القطاع العام لأنه يضيف إليه ويدعمه ، أى أن القطاعين يكملان بعضهما البعض وليس ثمة تناقض بينهما فى العمل والإنتاج . فسوف يعود إنتاجهما على البلاد بالخير ، ولذلك تحتم سياسة الانفتاح اطلاق حرية البنوك ومساهمتها فى عمليات الاستثمار ، وفتح البنك الصناعى لأغراض التنمية وتقديم القروض والائتمان إلى الحرفيين ، وفتح البنك العقارى وتدعيم رأسماله لكى يقوم بتمويل المشروعات الخاصة بالبناء والتعمير . بهذا سيكون العائد هو المزيد من الإنتاج والتنمية مع أسلوب الإدارة العصرية ، والمزيد من الحوافز برفع مستوى الكفاءة فى التدريب ، مع التخطيط السليم للقوى العاملة حتى يكون لدينا دائماً المجال لتصدير خبراتنا للدول العربية والأفريقية ولتوفير ما يمكن أن نوفره فى الداخل تنفيذاً للخطة القومية الشاملة والاستراتيجية الحضارية التى تتطلع إليها مصر عام ٢٠٠٠ .

إذن فإن هدفنا هو تطوير القطاع العام وترشيده وليس

تصفيته بأى حال من الأحوال كما يدعى المغرضون والمرتزقة . أن القطاع العام هو أساس اقتصادنا القومى مهما شجعنا القطاع الخاص ، ولولا القطاع العام فى السنوات السبع السابقة لمعركة أكتوبر لما استطعنا أبدا أن نصمد اقتصاديا فى وجه التحديات العسكرية والسياسية الطاغية . صحيح أنه فى أكتوبر ١٩٧٣ كنا قد وصلنا اقتصاديا إلى مرحلة الصفر وما تحت الصفر أيضاً ، لكن هذا لا ينفى أننا ظللنا سبع سنوات عجاف (١٩٦٧ - ١٩٧٣) نصرف وننمى بل واستمرت كل المكاسب الاشتراكية مثل التعليم المجانى والعمالة الكاملة ولكن فى حدود ضيقة إلى حد ما بحكم الضغوط الاقتصادية الرهيبة للانفاق العسكرى . وهى الضغوط التى ساهم القطاع العام فى التخفيف منها إلى حد كبير .

وعندما نتكلم عن الانفتاح الاقتصادى وإتاحة الفرص للقطاع الخاص لكى يستخدم طاقاته المعطلة ، فهذا لن يمس القطاع العام من قريب أو بعيد ، فالطاقة الاقتصادية العاملة فى القطاع العام تزيد عن أربعة أضعاف القطاع الخاص ، ومهما زادت طاقة القطاع الخاص فإنها لن تزيد فى نسبة زيادتها عن القطاع العام وهكذا . فالفرص متاحة للجميع فى عهد الانفتاح خاصة بالنسبة للمشروعات المشتركة مع الشركات والمؤسسات الأجنبية ولا شك أن وجود القطاع الخاص

سيحفز القطاع العام على التنافس والإجادة ، فالمسألة ليست احتكاراً ولكنها منافسة من أجل مصالح المواطن العادى ورفاهيته .

٥

واجب أن يعلم الشعب أن الاشتراكية فى أساسها مبدأ إنسانى رفيع وضع لخدمة الإنسان .. وليست صنما يتعبد فى محرابه . إن الاشتراكية ليست توزيع الفقر بالعدل بل توزيع الرفاهية والخير . وهى ليست مستوردة لأن القرية المصرية كانت أول مجتمع إنسانى فى التاريخ عرف الاشتراكية كسلوك عملى بعيدا عن النظريات والشعارات الفارغة . إن الاشتراكية كما تعلمتها فى القرية هى اشتراك الجميع فى نفس الأدوات والخدمات وفى السراء والضراء .. فالمحراث الواحد مثلا ينتقل بين أكثر من حقل بصرف النظر عن صاحب الحقل الذى يمتلكه . وهذا يرجع إلى الكيان الأسرى الذى يتمتع به مجتمع القرية .

وعندما أبذل أقصى ما فى طاقتى لكى تشمل مظلة التأمينات الاجتماعية كل إنسان على أرض مصر فإننى أستلهم فى هذا قيم القرية المصرية التى تعتبر الاشتراكية تأمين الإنسان ضد العجز والشيخوخة والمرض . أن هناك محظورا واحداً فى

الاشتراكية وليست هناك من محظورات غيره ، هذا المحظور الوحيد هو استغلال الإنسان للإنسان وليس فى الانطلاق إلى التنمية استغلال للإنسان وإنما هو تنمية من أجل الإنسان . لهذا لاحظت قصورا فى فهم الظروف المتغيرة ومن ثم قصورا فى الإمساك بالفرص المتاحة أمامنا . وبرغم أن شعار الانفتاح قد تحقق ، فقد ظلت بعض الرواسب القديمة تتمسح أحياناً بشعار الاشتراكية ناسية أن الاشتراكية الحقيقية هى أن يصبح مجتمعنا كله مجتمعا من المنتجين .

ويجب أن نعترف أن بعض العوائق البيروقراطية ظلت تسد الطريق كما حاولت دواما أن تسد الطريق أمام كل أمل لشعبنا وكل مطلب له ، وتعثرت مشروعات ما كان لها أن تتعثر وتلكأت الإجراءات والتعقيدات وكأننا لسنا فى سباق مع الزمان نحاول تعويض ما فات واللحاق بالعصر كما ينبغى أن يكون اللحاق به ، كما يجب أن نعترف أن هناك من تصوروا أن الظروف الجديدة فرصة متاحة لهم شخصيا وليست فرصة متاحة لمجموع الشعب كله . هكذا لاحظت بكل أسف أن هناك ثروات تتراكم ويجىء تراكمها فى معظم الأحيان من أعمال طفيلية . وأن لم أكن ضد أن يكسب أحد بجهده ما يستحق ، ولكننى على وجه اليقين ضد أن يكسب أحد على حساب غيره من الناس أو استغلالا لظروف الناس .

أننا لسنا مجتمعاً لأصحاب الملايين وإنما نحن مجتمع للعاملين

المنتجين . إن هذا المجتمع لن يعود مهما حدث إلى حالة كان فيها قبل الثورة يوم أن كان نصف فى المائة فقط من السكان يحصلون وحدهم على نصف الدخل القومى . ذلك إفساد لا يقبل الشعب به وسوف أقاومه وسوف يقاوم الشعب معى . إننى لن أسمح بأعمال سمسرة طفيلية وبأعمال المضاربة والمغامرة ولا بالمتاجرة بالتهريب فى السوق السوداء ولا بتلاعب هذه الفئات الضالة بأقوات الشعب ومتاجرتها فى مصالحه . خاصة أن سياسة الانفتاح تهدف إلى تشجيع واعطاء الحافز للمزيد من استثمار رؤوس الأموال سواء كانت الأموال محلية أو إقليمية أو أجنبية لبلوغ هذه الغاية نقوم بطبع قوانيننا بطابع تحررى وبإزالة القيود ومحاربة البيروقراطية وتشجيع المبادرة ، وذلك بأسلوب أبعد ما يكون عن التسيب . إننا لم نصل بعد إلى تحقيق أهداف هذه السياسة بصفة تامة ، ومازالت هناك بعض من مخلفات الماضى لكننا نعمل بهمة كبيرة من أجل تحقيق هذه الأهداف بتصميم لأننا نعلم أن إصلاح هيكل قائم يمكن أن يكون أكثر صعوبة من إقامة هيكل جديد ، وكلما سرنا خطوات فى تطبيق هذه السياسة نقوم بعمل التصميمات والتعديلات الضرورية ، ونأمل فى أن يصبح لنظامنا الاقتصادى الأدوات التصحيحية الخاصة به ، كما أننا ندرك الحاجة إلى إقامة توازن بين الاستقرار والمرونة وهو ما نقوم به على وجه التحديد .

٦

ولعل من أهم جوانب سياسة الانفتاح ضرورة بث الطمأنينة لدى المستثمرين الأجانب وإقناعهم بأنهم لا يقومون بأية مخاطره عندما يستثمرون أموالهم فى مصر فى الوقت الحالى وفى الوقت الذى يكون فيه حجم التضخم جامحا والكساد الاقتصادى يسود عدة أجزاء من العالم فإن رأس المال يكون نادرا ومن الصعب الحصول عليه . لكننا نعمل كل ما فى وسعنا لنجعل من مصر نقطة جذب للمستثمرين مادام أن هدفهم هو المنفعة المتبادلة وليس الاستغلال فأنهم سيجدوننا أكثر استجابة وتفهما لاحتياجاتهم . فنحن نحتم على أى نشاط اقتصادى أن يتلاءم مع خططنا الشاملة للتنمية الاقتصادية التى تضع الأولويات للهدف القومى الذى نتطلع إليه ، ونحن لا نخاطر بفقدان استقلالنا الاقتصادى أو برهن اقتصادنا ، ولكننا نرحب بمشاركة مفيدة ومجزية يربح منها الجانبان .

ولقد أصدرنا قانون (٤٣ لعام ١٩٧٤) لتنظيم الاستثمار الأجنبى والمناطق الحرة . وهو يمنح الاستثمار الأجنبى ضمانا

واعفاءات عديدة . فالمستثمرون الأجانب هم الآن فى مأمن من التأميم والمصادرة ونزع الملكية أو الاستيلاء عليها . كما يضمن القانون أيضاً حرية تحويل الأرباح ورأس المال إلى البلد الذى أتى منها . وعلاوة على ذلك فقد أنضمت مصر إلى الاتفاقية الخاصة بتسوية المنازعات حول الاستثمار من خلال البنك الدولى . وبالاضافة إلى ذلك عقدنا اتفاقيات ثنائية مع عدة دول توفر حماية اضافية لاستثمارات مواطنيها .

ولا تعتبر سياسة الانفتاح عملية التنمية عملا اقتصاديا محضا ، فهى تشمل التنمية الاجتماعية وبناء المؤسسات الجديدة التى يجب أن تتسم بالمرونة والاستقرار معاً ، وبقدرتها على التكيف مع معدلات التغيير السريعة التى أصبحت السمة الرئيسية فى عصرنا . كى تصر سياسة الانفتاح على توفير الاستمرار والاستقرار اللازمين لتجنب الهزات الضارة التى عانت منها بعض المجتمعات التى تسير على طريق التحديث . ولعل من أهم سمات المؤسسات التى نسعى إلى بنائها أنها تتجنب تنمية مجتمع مزدوج الشخصية يسمح فقط لقطاع من الشعب بأن يجنى ثمار التقدم .

إن التنمية الاقتصادية من وجهة نظر سياستنا الانفتاحية هى دفع عجلة النمو وإحداث تغيير فى بنيان الاقتصاد المصرى بهدف بناء الإنسان المصرى . لذلك فإننا نحتاج إلى رأس المال والموارد الإنسانية على حد سواء ، لكننا نحتاج قبل أى شيء أخر إلى

عملية هائلة لنقل التكنولوجيا واستيعابها . لذلك فنحن نهدف إلى جذب المستثمرين الأجانب لكى يأتوا لابرؤوس الأموال وحدها بل وبخبراتهم ومعارفهم الفنية .. إننا نسعى إلى التعاون بدلاً من التطاحن ، والعمل بروح المسئولية بدلا من القيود الإدارية . وهى نفس الروح التى تشعر بها الإدارة تجاه حملة الأسهم وعن طريق المشروعات المشتركة ، سيكون الشعب المصرى حاملا للأسهم فى هذه المشروعات سواء تم ذلك عن طريق المشاركة العامة أو الخاصة وقد تكون صيغة المشروعات المشتركة ذات طابع ثنائى أو ثلاثى حيث يتزاوج رأس المال الإقليمى مع الخبرة التكنولوجية للانضمام إلى الموارد المحلية لتنفيذ مشروعات بينها .

وهذه الصيغة للتعاون ثلاثى الأطراف لها جاذبيتها الخاصة ، فقد ثبت نجاحها الكبير أينما وضعت موضع التطبيق . إن موارد رأس المال الهائلة التى تراكمت فى المنطقة ومعها الخبرة الفنية والتكنولوجيا الحديثة تمثل مزيجا رائعا عندما تقترن بقاعدة راسخة من فرص الاستثمار . إننا بوضعنا التكنولوجيا المستوردة فى خدمة المصالح المتبادلة للأطراف المعنية نضمن أن تكون هذه التكنولوجيا جزءا من تيار متدفق وليست عملا منفصلا عن مجرى الأحداث . وفى الوقت الذى تخلق فيه تكنولوجيا وأساليب إدارية وتسويقية جديدة لخدمة الإنتاج فانه سيكون من مصلحة المستثمرين أن يأتوا بها إلى مصر ، وبناء صناعة قوية قادرة على البقاء والمنافسة .

٧

وفضلا عن تقديم مصر للامتيازات والحصانات والضمانات العديدة فاننا نستطيع المشاركة ببعض من رأس المال والمساهمة بعدد من الأسهم كما أننا نبنى ونجدد الآن مرافقنا وخدماتنا الأساسية حتى ندعم قدرتنا على المنافسة ، هذا بالاضافة إلى تطوير مواردنا الإنسانية عن طريق توفير المزيد من التعليم الفنى والتدريب المهنى يهدف اطلاع القوى العاملة فى بلادنا على أحدث التطورات فى عالم التكنولوجيا .

ولا تنسى سياسة الانفتاح الاستفادة بالمزايا المتمثلة فى الموقع الجغرافى لمصر والكائن فى قلب أسرع مناطق العالم نمواً . إن بلادنا تمتلك فرصا لا تعد كما أن شعبنا قد عرف على مدار تاريخه بأنه شعب دؤوب وخلاق ومحب للعمل . وبفضل بنيان السلام الذى نشيده فإن الموقف سيصبح بالتأكيد أكثر انطواء على الأمل . لذلك فنحن نفعل كل ما بوسعنا لدعم التحرك من أجل السلام ، ونصمم على إنتهاج هذا السبيل من أجل خير شعبنا ولصالح الأمم الأخرى . من هنا كان قرارى بإعادة فتح

قناة السويس كمساهمة من جانب واحد هو جانبنا لخدمة تجارة العالم ورفاهيته .

أن المعنى الحقيقى لسياسة الانفتاح يكمن فى الإيمان القوى بأن كافة الشعوب ستستفيد كثيراً ولن تخسر شيئاً من مضاعفة التبادل وتعزيز المعاملات فيما بينها . فالفائدة ستعود على الجميع سواء فى مجال الإنتاج أو العمالة . فكلما زاد الإنتاج احتاج إلى عمالة أضخم ، وكلما زادت العمالة تضاعف الإنتاج بالتالى .. هذه هى الخطوة الأولى نحو الانطلاق الحقيقى نحو أفاق العصر الذى أصبح فيه الاقتصاد أساس كل شىء فقد أنتهى عصر الشعارات واللافتات والأصنام الاشتراكية ، وأصبحت الاشتراكية سلوكا عمليا وممارسة يومية من أجل بناء الإنسان المصرى ورفاهيته .

الفصل العاشر

كراسة السجن

بعد هذا الخط الفكرى المصرى الصميم الذى قدمته لشعبى من خلال الفصول المتتابعة التى تكون منها هذا الكتاب أحب أن أختمه ببعض المختارات من كراسة السجن التى مازلت احتفظ بها حتى الآن منذ ثلاثين عاما .. فهذه المختارات هى فى الحقيقة أصداء لما كان يزخر به قلبى وعقلى من قيم إنسانية عليا فى ذلك الوقت المبكر من حياتى .. ولذلك أصبحت على التو ومازالت إلى الآن جزءا لا يتجزأ من وجدانى وسلوكى وفكرى .. فهى بذلك ثمرة تجاربى وتجارب من سبقونى إلى الحياة بعد أن استوعبها عقلى فاحتواها واحتوته.

إنها مجرد علامات على الطريق ولذلك رأيت أن أقدمها إلى أبنائى وأصدقائى علهم يسترشدون بها فى مسيرتهم أو على الأقل يجعلون مما يروق لهم منها موضوعا لحوار بناء من أجل مصر الغد .

بعض المختارات :

- سأغرس فى نفسى الإيمان النافع ، فأومن بأن الله يريد الخير للعالم ، وأومن بالحب والشرف والوفاء وبكل ما يجعل الحياة قوية سليمة .
- فى العالم دربان من النجاح أحدهما وهو الأهم النجاح الداخلى الذى يقوله ضميرى لى .. والآخر هو النجاح الخارجى الذى يراه الناس .. وأولهما هو الاحرى بالتحقيق .
- لست أعترف بسلطة على عقلى ولذلك سأجعل عقلى حراً طليقا من الأغراض والشهوات .. وكذلك لن أتبع رأى أحد حتى يقره عقلى .
- تبتدىء حياة الأمم العظيمة من بدء إعلان استقلالها .. وكذلك يبدأ الفرد حياته الشريفة من يوم أن يعلن استقلال نفسه .
- أومن بالحياة بعد الموت وبأن حياتنا على الأرض جزء من حياة طويلة سنحياها بعد ذلك وأعتقد أن الإيمان يرفع الحياة ويشرفها .
- ضع الآخرين دائماً فى اعتبارك ، وأنظر إليهم فى حب وتسامح ، فإنهم سيردون إليك نفس الأحاسيس ذات يوم .
- لا تحاول عبور القنطرة قبل أن تصل إليها .
- كن حكيما فى اختيارك لأصدقائك واحرص على الصداقات الأصيلة ولا تفرط فيها أبدا ، فهى من أعظم المعانى التى تمنح

لحياتك مذاقا وقيمة ، وتضيف إليها كيانا جديدا .. ونحن عندما نفقد الأصدقاء فإننا نفقد أجزاء عزيزة على نفوسنا .

- لا تترك الغضب يمسك بمقاليد الأمور فى حياتك .. فربما غيرت رأيك تماماً عندما تحاول فهم وجهة نظر الآخرين بموضوعية حكيمة .
- إن التسامح هو الزيت الذى يمنع آلة الحياة من التوقف والانفجار ، والتسامح ليس من صفات الضعف والاستكانة ، لأنه قيمة كبيرة لا يقدر على ممارستها سوى الأقوياء .
- احذر التخلى عن شخصيتك المتفردة واستقلالك الذاتى ، فان السير فى موكب الآخرين لن يصل بك إلى الهدف الذى يناسب قدراتك ومواهبك .
- من أقوال الحكيم المصرى امنحتب :

١ – قل الحق دئماً ولا تسمع أبدا إلا كلمة الحق لأن الحق حصن منيع يحميك ويحمى من يستمع إليك .

٢ – لا تسرق الفقير لأنه فقير ، ولا تقهر الضعيف لأنه ضعيف ، ولا تصاحب الرجل الجشع ولا تخالط الرجل الحاقد وإلا أصبحت روحك أسيرة الجشع والحقد مثلهما .

٣ – اعمل دائماً ولكن لا تجعل جمع المال والثروة الهدف من عملك ، لأن الثروة تزول أما العمل فيبقى .

- افتح قلبك دائماً للحب ، ولا تصم أذنك أبدا عن المعرفة ، لأنه بالحب والمعرفة تصبح أقوى الأقوياء .
- إن التقدم مستحيل بلا تغيير والذين لا يغيرون أفكارهم لا يستطيعون تغيير أى شىء آخر .
- يجب ألا تضع آمالا كبارا فى نفوس صغيرة .
- أن رجلا شجاعا واحدا أكثرية .
- أن إنكار الذات هو أسمى دروب التدين (غاندى) .
- أن تحب وأن تحب هى أعظم نعمة فى الوجود (مثل ألمانى) .
- أن قيمة الإنسان لا تقاس بضخامة ممتلكاته ، ولكن بضآلة احتياجاته .
- لا شىء يمنح الإنسان القوة سوى ممارسة الكفاح .. ولعل أصعب أنواع الكفاح هو كفاح الخطئية والشر .
- أن المجتمع الذى تهدر فيه إنسانية فرد من ملايينه .. مجتمع ظالم غير جدير بالبقاء .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٨٢/١٥٩٧
الترقيم الدولى
٤ - ٤٨ - ٧٣٢٣ - ٩٧٧

مطابع
المكتب المصرى الحديث

قصة هذا الكتاب

فى أبريل ١٩٧٨ أصدرت الطبعة الأولى من كتاب السادات : البحث عن الذات وكانت العبارة التى سأقدم بها الكتاب فى ذلك الوقت تقول [أن السادات واحد من أعظم الحكام فى العالم وأعظم من حكم مصر حتى الآن] .. ولأن السادات كان على رأس السلطة - حينذاك - فعدلت عن ذلك فى آخر لحظة واخترت عبارة من عبارات الكتاب التي يقدم بها السادات نفسه للقراء .. وصدر الكتاب لا فى مصر فقط بل فى العالم أجمع وبكل اللغات وأعيدت طباعته ومازال .

فى فبراير ١٩٨٠ تعاقدت على نشر كتاب « البحث عن السلام » للزعيم أنور السادات وكان مقرراً أن يصدر - بمشيئة الله فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢ .

فى أبريل ١٩٨١ تعاقدت على نشر هذا الكتاب ليصدر بعد البحث عن السلام .

ولكن شاءت الأقدار غير ذلك ، فرأيت نشر هذا الكتاب فى هذه الأيام التى شهد فيها الزمان مولد السادات احتفاء بهذه الذكرى الكريمة بعد أن رحل عنا صاحبها .. وكأنه يتحدث إلينا ، ولكنه حديث جديد لم نسمعه من قبل .

فالكتاب يحتوى على ثمار تجارب لمراحل الزعيم السادات فى الحياة وهو يكشف عنها فى بساطة ويسر ، فقد كان حريصا على أن يتركها بين يدى جميع الناس .. وصية كريمة علها تثير حوارا تفيد منه الأجيال على مر السنين .

فهذه الثمار ليست دروسا أو عظات يفرضها صاحبها على الناس بقدر ما هى قيم إنسانية عليا استخلصها السادات من التجارب العديدة التى مر بها فى حياته فأصبحت تصلح لكل زمان ومكان لأن الأصل فيها والهدف منها فى نفس الوقت هو خير الإنسان .

والوصية متعددة الجوانب فهى تحدثنا عن الإيمان والحب والنجاح والكرامة والشجاعة وانكار الذات وغيرها من قيم تكشف فى مجموعها فريدة للإنسان فى علاقاته مع الله سبحانه ومع الكون ومع نفسه من الناس .

هذه الرؤية بهرت العالم بأجمعه عندما كشفت أعمال السا جوانب منها .

ولكن هذا الكتاب الذى لى شرف تقديمه للقارىء فى كل مكان يك الرؤية كاملة كما يراها صاحبها - رحمه الله - وكما لم يكشف عنها من وفقنا الله جميعا لما فيه خير الإنسان فى كل مكان

أحمد يحيى

مطابع المكتب المصرى الحديث

٢٠٠ قرش